من القيم الإنسانية في الإسلام

للأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومي
عضو مجمع البحوث الإسلامية ـ سابقًا

الجزء الثاني



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة من سماحة الإسلام

يقرأ المؤمن المتدبر قول الله -عز وجل- :

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الجاثية : ١٤)

فيستشعر إجلالًا مهيبًا لما يوحي به هذا النص الكريم، فهو في نبله الإنساني يشف عن سماحة حميدة تتسع حتى تشمل المناوئين من أعداء الدين. وإن لنا في آيات الكتاب وأحاديث الرسول وسيرة الصفوة من قادة الإسلام لنماذج كثيرة تنحو هذا النحو الرائع، وتسمو بالمشاعر المسلمة إلى أفق إنساني ودود، ولم تقتصر هذه السماحة البالغة مع أهل الكتاب على أن نجادلهم بالتي هي أحسن وندعوهم إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، بل شملت غيرهم ممن لا يرجون لقاء الله وكذبوا بما لم يحيطوا به حتى ليدعونا الكتاب العزيز أن نبرهم ونقسط إليهم إن الله يحب المقسطين ! !

وقد أفاض الكاتبون من دعاة الإسلام في إيضاح هذه الصفحة الوضيئة من صفحات الإسلام بما لا يدع مزيدًا لمستزيد، وأنا هنا لا أحاول أن أكرر مُعادًا ألفته الأسماع واطمأنت إليه العقول، ولكني أعرض على ضوء هذا الهدف المشرق سيرة أديب صابئ من عبدة الكواكب، وسعته سماحة الإسلام عن صدر رحب، وبشر متهلل، فبلغ في دنيا الأدب كتابة وشعرًا

وهو يومئذ عربي يقتدي بعذوبة القرآن وسلاسته -مكانة رفعته إلى أسمى المراتب، وهيأت له أن ينوب عن الوزير فيما يصرف من مهام، ويقرر من شئون، وكم في تاريخ الإسلام من أمثال له وسعتهم إنسانيته العادلة، فبلغوا الأوج الشاهق دون أن تطمس لهم كفاية مقدورة، أو يجحد لعبقرياتهم فضل ملموس!!

وإن العجيب حقًا أن يصل أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني إلى مثل هذه المكانة في دنيا بني العباس، وبغداد يومئذ حاضرة الدنيا وعاصمة الإسلام.

ونحن حين نبحث عن الصابئة في القرن الرابع الهجري -عصر أبي إسحاق- لا نتلمس تعاليمها مما كتبه الكاتبون عنها في القرن العشرين!! فأكثره مشاهد شخصية لباحثين متجولين رحلوا إلى أماكنهم المتفرقة في العراق، فأخذوا من تعاليمهم المستحدثة وأوضاعهم المستجدة ما حسبوه دينًا أصيلا للصابئة، قد انحدر إليهم من أزلهم السحيق، ولكننا نرجع إلى ما كتب عنهم أيام أبي إسحاق أو بعده بقليل، فنجد مؤرخي الملل والنحل قد جعلوهم فرقتين مختلفتين، فرقة تقول: إن خالق الكون هو الله -سبحانه وتعالى- ولكنه خلق الكواكب كالشمس والقمر والنجوم لتكون قبلة للدعاء ومركزًا للصلاة، فهي دلائل وجوده، ووسائل نفعه وضره، وفرقة ثانية: ترى أن الله خلق الكواكب وحدها فقط، ثم تركها تخلق ما أرادت من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وهي المدبرة لما في الكون من صحة ومرض، وخير وشر، وعلى البشر تعظيمها وإجلالها؛

لأنها الآلهة المدبرة المتصرفة، والفرق بين الفرقتين واضح، إذ إن الأولى تنسب الخلق والإيجاد لله، والثانية تجعله للكواكب، وأرجح أن أبا إسحاق كان ممن ينتمون إلى الفرقة الأولى فمثله في عقله الثاقب واطلاعه الواسع على أديان عصره أكبر من أن يعتقد هذا الاعتقاد البدائي!!

حقًا لقد كانت الكواكب مؤلهة عند أكثر الناس في طفولة البشرية، حين كانوا ينظرون فيجدون للشمس وللقمر وللنجوم من العظمة والإشراق والعلو قدرًا كبيرًا، ولكن تطور الخليقة واكتمال النظر، وتتابع الرسالات جعل من هذه العقيدة أسطورة مضحكة لا يجدر بكاتب مفكر أن يعتنقها في القرن الرابع الهجري، على أننا مع هذا التقدير لا نستبعد شيئًا على الإطلاق، فالأمر في العقائد يخضع لتأثير العاطفة والبيئة خضوعًا تتهافت دونه أدلة العقل، وللتربية الأولى في عهد الطفولة أثرها المحسوس في تحديد المذهب وتعيين الاتجاه.

ولقد نشأ الصابئ في عهد يزخر بأئمة البلاغة وأمراء الأدب ممن تسنموا ذرى الرياسة والسياسة عن طريق البيان والإفصاح، فلو كان الرجل فذًا مفردًا لا شريك له في أدبه وثقافته لقلنا: إن دولة الإسلام قد احتضنته -على نشوز دينه- حين افتقرت إلى سداد بلاغته وسحر مقالته، أما وقد تألق نجمه في سماء بزغت بها شموس وضاءة في النثر والشعر معًا، مثل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي حيان التوحيدي وأبي الفرج الأصفهاني وأبي بكر الخوارزمي وأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني

والشــريفين: الرضــي والمرتضى، وغيرهم ممــن لا يحيط بهم الحصــر، فقــد شــق الصابــئ طريقه ووجد مــن أعيــان الخلفاء ووجهــاء الوزراء من وضعه في مكانــه المرموق، إن ذلك وحده لينهض دليلًا على ســماحة بيئته التي نشأ فيها، ويعطي البرهان الأكيد على أن المســلمين بعيدون عن التعصب بعدًا يدعو إليه القرآن وتشيد به أحاديث الرسول.

لقد كان الوزير المهلبي، وهو ببغداد، صاحب الكلمة العليا فــي دولــة الخلافة، صديقًا حميمًا لأبي إســحاق، يحــن إليه إذا غاب فيســتدعيه، كما يأنس به إذا حضر ويستشيره، وكثيرًا ما أقامه مقامه في الوزارة إذا ارتحل عن العاصمة في تســكين ثائرة أو تضميــد نائرة، فلا يجد أحد حرجًا من إقامة صابئ مقام وزير مسلم في خلافة سنية تستهدي كتاب الله فيما تقوم به من الأوامر والأحــكام، ولم يكن الوزير المهلبي ضيــق الأفق قصير النظر، فيرمــى بالغفلة والحمق في إســناد الوزارة إلــى الصابئ، ولكنه كمــا يقول الثعالبي نقلًا عن اليتيمة، ج٢، ص٢٢٣: «وكان من ارتفــاع القدر واتســاع الصدر ونبل الهمــة، وفيض الكف وكرم الشــيمة، على ما هو مذكور مشــهور، وأيامه معروفة في وزارته لمعــز الدولــة، وتدبيره أمور العراق وانبســاط يــده في الأموال مــع كونه غاية في الأدب والمحبة لأهله، وكان يترســل ترســلًا مليحًا، ويقول الشعر قولًا لطيفًا يضرب به المثل، ولا يستحلى معه العســل، هذا الوزير السياسي الأريب وجد من سماحة دينه وسمو إســلامه ما اصطنع به أبا إسحاق عن دربة واختبار، فكان

كمـا يقـول الثعالبي فـي موضع آخـر، ج٢، ص٢٤٣: «لا يرى الدنيـا إلا به ويحن إلى براعته، ويصطنعه لنفسـه، ويسـتدعيه في أوقات أنسـه، وظل وفيًا لصداقتـه حتى قتل في إحدى الفتن بعمان، فقطع الموت مودة حلوة هنيئة، وخسـر الصابئ بفقده ذخرًا ثمينًا وكنزًا لا تفي بقيمته كنوز».

ولم يكن الوزير المهلبي فريدًا في اصطفائه أبا إسحاق، فقد كانـت تأتيه هدايا سـيف الدولة الحمدانـي، وتحف عز الدولة بختيار بن بويه، حتى لقد عرض عليه الوزارة نفسـها إن أسـلم، فما اسـتجاب لعرضه، ولم يشـأ أن يجبره على ما لا يريد، وظل يؤثره بنفائسـه وألطافه، وما زاده تمسكه بدينه إلا رفعة وسموًا فـي عينه، وهو بعد دين لا يقوم عند غير الصابئة على أصل ولم يأت به نبي تذكره الأديان.

وكان الصاحـب بن عبـاد تياهًا فخورًا، يرى نفسـه بالمحل الأعلى من السياسة والبيان معا، ولكنه كان يدخر لأبي إسحاق ودًا كريمًـا وتقديـرًا رائعًـا، فهـو يحـرص على مودتـه متلطفًا ويسـتدعيه إليـه متحببًـا، فيقـدم تـارة ويحجم تـارة، وما كان للصاحب وهو الوزير الرئيس التياه أن يتحمل إحجام فرد ما عن تلبية ندائه، لو لم يكن يقدر قدره، ويزن قيمته في دولة البيان، ومـع أن الصاحب قد جافى أبا حيان التوحيدي المسـلم ونابذه لفرط اعتداده بنفسـه، فلم تشأ له سماحته الحساسة أن يجافي أبا إسـحاق الصابـئ لإحجامه، بل أخذ يعتـرف صراحة بفضله وعقله، ويقول:

« كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابئ ولو شئت لذكرت الرابع » ، ويعني به نفسه ، فنراه يذكر أبا إسحاق ، ويترك أبا حيان ! ! والتوحيدي باعتراف أساتذة النقد سيد الجميع ، فلو أن تعصبًا دينيًا طاف بنفس الصاحب لأسقط أبا إسحاق كما أسقط من هو أفضل منه من أبناء ملته ، ولكنه التسامح المعتدل يفرضه القرآن ، وتوجبه الأخلاق ، وبهما يعيش أبو إسحاق قرير العين مطمئن الفؤاد .

وأطرف ما يروى في حياة الصابئ هو صداقته للبيت العلوي في بغداد ، فقد كان نقيب الطالبيين الشريف الموسوي والد الرضي والمرتضى من أصدقائه المحتفين بأدبه وذكائه ، ولم يجد الزعيم العلوي غضاضة ما في أن يتأثل وده بأديب صابئ يفد إلى داره بين الفينة والفينة فيؤاكله ويحادثه ، ويصادق شبليه الناشئين ؛ لأن الإسلام في لبابه يحرص على مودة مخالفيه ، ويعلن كتابه الصريح أن :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

(البقرة : ٢٥٦)

وقد امتدت صداقة أبي إسحاق للبيت العلوي حتى ممات الوالد وترعرع الشريف ليؤكد الصلة ، فكانت صداقة الفتى اليافع والكهل الفاني مضرب المثل بين الناس حتى خرج الصابئ عن طوره فرشح الشريف في بعض أبياته لإمارة المؤمنين ، ولم يجد من الخلفاء من يغلظ له الحساب على وعورة المسلك

وخطر المركب، وظلت المطارحات الشعرية يتجاوب صداها بين الصديقين أمدًا غير قصير، فتفصح عن إخلاص متبادل وتقدير مشترك، ورواة الأدب يذيعونها في كل مجلس، فتتعطر بها الأندية، وتحلو بترديدها الأسمار، حتى مات أبو إسحاق، فجزع عليه الشريف الرضي جزعًا نال منه كل منال، ورثاه بقصيدة فريدة يعدها بعض النقاد من أبلغ مراثي الشريف إن لم تكن أبلغ ما قال ! ! ثم عاود رثاءه مرة ثانية وثالثة، فحفظ ديوانه الذائع ثلاث مرثيات خوالد للصديق الراحل، مع أنه رثى والده الشريف الموسوي بقصيدة واحدة ! فأي وفاء حي عاش في مهجة الشاعر لصاحبه الفقيد ؟ إن الدنيا لتضيق في عينيه بعده فيكرر الرثاء مرة ومرة ليستريح، فما ينعم ببعض ما يريد، بل يكون مآله كما قال في إحدى مراثيه :

رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة
لأن المراثي لا تسد المرازيا

وهو بيت صادق لا يقل روعة عن قوله في مرثاته الأولى :

سلوا من الأبراد جسمك وانثنى
جسمي يسل عليك في الأبراد

وقوله في مرثيته الثالثة :

أمضي وتعطفني إليك نوازع
بتنهد كصبابة العشاق

وإن صابئًا ينال هذا التقدير من رئيس ديني وزعيم علوي كالشريف الرضي وأبيه ؛ لدليل على أن أبناء الإسلام يعتنقون

حكـم الله فـي المســاواة والعدالة بيــن الأجنــاس والأديان دون تفريق على أن الصابئ كان متشددًا في اتباع تعاليم الصابئة، فلم يكن ليتحلل بعض الشــيء كما نلحظ في ســير أناس من الأدباء ترهقهــم ملزمــات الدين فيطلقون لشــهواتهم العنــان، وكثيرًا ما اشــتهروا ببغداد على عهد أبي إســحاق وفيهم شــيوخ الدين كالقاضــي التنوخي، وابن معــروف، وابن قريعــة، وأضرابهم، ولكن الصابئ راعى حدود الدين مراعاة تحسب له لا عليه، فقد حضر يومًا مائدة الوزير المهلبي فامتنع عن لون محرم من ألوان الطعام لدى الصابئة، فقال له المهلبي: كل ولا تبرد فأجاب في أدب:

لا أحــب أن أعصي الله في مأكول، وذكر بعض مؤرخيه أن عز الدولــة بختيار بذل له ألف دينــار على أن يأكل الفول، وهو مما حــرم في دينه فرفضهــا عن تعفف، وله شــعر جميل نلمس فيه هذه النزعة الدينية المتحرجة، كان يقول:

حـمـتـنـي لـذتـي رتـب الـمـعـالـي
وصـنـي بـالـمـروءة والـوقـار
وديـن ضـاق فـيـه مـجـال فـتـكـي
لـخـوف عـقـوبـة وحـذار نـار

ولــم يزده هذا التشــدد إلا إكبارًا في نفــوس المنصفين، فما قرأنــا فيمــا كتب عنه على كثرته أن أحــدًا من خلصائه قد ضاق بتشدده، بل تركوه يؤدي فرائضه الدينية، ومقدساته الشرعية، وحسبهم منه أن يجازيهم وفاء بوفاء.

ولا ننكــر في هــذا المجال أن أبا إســحاق الصابئ تعرض في حياته الطويلة -وقد جاوزت التسعين- لنكبات سياسية قذفت به في ظلمات الســجن والاعتقال، ولم يكن لدينه الناشز أثر ما في اضطهاده، ولكنها السياســة -لحاها الله- دفعته إلى مناصرة فريــق علــى فريق، ثــم جاءت الريــح بما لا يشــتهي، فتم الأمر لخصومــه، فنكلوا بجميع أعدائهم ومنهم أبو إســحاق، بل إننا نذكر أن غريمه الحاقد عضد الدولة قد اكتفى بحبسه واعتقاله، اســتجابة لشفاعة بعض ذوي الأدب في شأنه، على حين قتل من خصومه المســلمين عددًا غير يســير، ولو كان أثر ما للتعصب الديني في نفسه لاهتبل الفرصة وطاح به مع الطائحين.

ولــن نختم هذا المقال دون أن نشــير إلــى أن الكاتب البليغ قــد حفظ القــرآن الكريم حفظًــا تامًا مجودًا، فارتقــى به معارج البيــان والســحر، واتخذه مورد إلهامه ومنــاط احتفائه، أفيعتبر بذلك الآن قوم من المســلمين يرون في جزالته الفصيحة وأسره القوي ما تضيق به عقولهم الواهنة، فيحاربون إعجازه الســاحر بإســفافهم الشــائن وتهافتهم الركيك! أم يكــون الصابئ أكثر منهم احتفالًا بروعة الكتاب اعتقادًا بأسلوبه الرصين؟

يقتربون من الإسلام:

لعل حرية تولســتوي الفكرية أول سمة تتسم بها شخصيته، فقد رزق كثير من الكتاب سلامة أسلوبه وروعة إبداعه، ولكنهم لــم يرزقوا هــذا الطموح القــوي إلى ارتيــاد المعرفــة، والولوع باكتناه أســرار الحقائــق على وجه ينأى عــن الترهات الجدلية، والأباطيــل المتوارثــة في الصحف الأثريــة دون تمحيص ونقد،

وقـد كانت هـذه الحرية الفكرية مثار الإعجـاب لدى معاصريه من شـتى الملل والعقائد والأجناس، فكثر أنصاره في كل مكان يقـدس الكرامـة الفكريـة، ويدعو إلـى الاسـتقلال العقلي في دراسـة العقائـد والمذاهب، حتى رأينـا عالمًا كبيرًا كالأسـتاذ الإمام الشـيخ محمد عبده يكتب إليـه كتاب المعجب المقدر، ويعلن في إعجـاب وإكبار ما يراه في حريته الفكرية حين يقول في خطابه الشهير إلى المفكر الروسي:

أيها الحكيم الجليل:

«لـم نحـظ بمعرفـة شـخصيتك ولكننا لـم نحرم التعـاون مع روحك، إذ سـطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسـك، هداك الله إلى معرفة سـر الفطرة التي فطر النـاس عليها، ووفقك إلـى الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل؛ ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى به ويرقى جنسـه، وشعرت بالشـقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت إلـى الدين فجرحـت حجب التقاليـد ووصلت إلى حقيقـة التوحيـد، ورفعت صوتك تدعو النـاس إلى ما هداك الله إليـه، وتقدمـت أمامهم بالعمـل لتحمل نفوسـهم عليه، فكما كنـت بقولك هاديًا للعقول كنت حاثًـا للعزائم والهمم، وكما كانـت آراؤك ضيـاء يهتدي بـه الضالون كان مثالـك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون»...

لقد نشأ تولستوي نشأة مترفة ناعمة، فقد كان سليل إحدى الأسر الكبيرة المثرية في بلده، وقد كان كاتبًا نابهًا تردد الدنيا بآثاره، وينال الحظوة الكريمة من صفوة المثقفين في عصره! وكان الذي يراه في صيته المدوي وأدبه الحافل وأسرته الشهيرة، وتراثه الجم يحسبه هادئ البال، قرير الجفن بما بلغ من الشهرة والجاه والأدب في عالم يهتف باسمه، ويتحدث عنه أدباؤه حديث الإعجاب والتقدير، ولكن الرجل الكبير كان مخدوعًا عن نفسه حين اعتقد في شبابه أنه خلق للقصص، الفتى يلج موالجه في حلبة الروائيين والقصاص، فإن بذور المفكر المصلح كانت مستترة في البقاع السحيقة من نفسه، ومرور الأيام يمدها بعناصر البقاء والنمو حتى تجاوزت الأغوار إلى السطح في سن الخمسين، فبدأ الكاتب الكبير يسأل نفسه عن وجوده في هذه الحياة؟ وعن مصيره المحتوم في نهايتها؟ وقد راعه أن تكون خاتمة الإنسانية على هذا النحو المجهول الفاجع! وكثير من المفكرين قد أحسوا إحساسه ثم صرفتهم الأيام عن الإيغال في هذا المنحى الدقيق فقبلوا الحياة على سننها، ولكن تولستوي كان من الحساسية بحيث شاهد الدنيا بعينه، وأخذ عليه التفكير! وقد كتب اعترافاته الشهيرة ليصور حقيقة اضطرابه الخافق في هذه الأزمة الحالكة وليقول في أسى وحرقة بالغين:

هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج في أحد السهول، فلجأ هذا السائحِ هربًا من الوحش إلى جب ناضب، لكنه وجد في قاع الجب غولاً قد فغر فاه ليلتقمه، ولما

رأى السـائح التعس أنه لا يسـتطيع النزول إلى قاعه، مخافة أن يلتهمـه الغول فقد أمسـك بفرع من النبـات انبثق من صدع في الحائـط وتعلق به، وأحس بالتعب يدب في يديه شـيئًا فشـيئًا، وشـعر أنه سـوف يسـلم نفسـه عما قليل لا محالة إلـى الهلاك الذي يتربص به من فوقه ومن أسـفل منه، ولكنه لا يزال متعلقًا بالغصـن ثم ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسـود، وقـد دارا حول ذلك الغصـن وأخذا يقرضانه وأيقن السـائح أن الغصـن لن يلبث حتى يقطع فيسـقط هو في فـم الغول، وبينما يرى ذلك ويعلم أنه هالك لا محالة إذ أبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن وأخذ يلعقها بلسانه.

يقول تولستوي: وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة، وإني لأوقن أن غـول المـوت يتربص بي، وأنه سـوف يمزقنـي كل ممزق، ولسـت أسـتطيع أن أدرك لمـاذا وقعـت في مثل هـذا العذاب، ولقد حاولت أن ألعق الشـهد الذي كانت فيه لي سـلوة من قبل ولكني لم أعد أجد في الشـهد ما يلذني، وما برح الفأر الأسـود والأبيض، وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذي تعلقت به، ورأيـت الغـول في وضوح، ولم يعد للشـهد طعمه الحلو وليس أمام ناظري إلا الغول الذي لا مهرب منه والفأران، ولن أسـتطيع أن أديـر عينـي عن ذلك، وليـس ذلك حديث خرافـة وإنما هو الحق الذي لا ينكر والذي يفطن إليه كل إنسان[1].

إن عقلًا كبيرًا يرهقه التفكير في مصيره لا بد أن يتلمس أبواب الهداية في كل سبيل متى يجد المطمأن والراحة لروحه...

---

(١) تولستوى، ص٢٧٣ لمحمود الخفيف.

الضمير العلمي

وسائل البحث العلمي:

أعـدت دراسـات متنوعة عن وسـائل البحـث العلمي لتفيد من ينشـط إلى الاتجاهـات العقلية في البحـث والتحليل، وقد أشبعت هذه الدراسات ما هدفت إليه، من إيضاح هذه الوسائل، حيـث أسـهبت في الحديـث عن قـوة الملاحظة والقـدرة على الاسـتنتاج، وتصميـم التجـارب وترتبهـا، وتنـوع المصـادر، ومعـاودة التجاريب، ووفرة المادة، ومراعاة الوضوح، وضرورة التركيـز، مما لابد منه للباحث الجـاد، ولكن الجانب الخلقي لـدى الباحث العلمي لم يجد حظه لـدى كثير من الكاتبين، إذ مـروا عليه مـرورًا عابرًا، فلم يقفوا طويلا عنـد ما يلزم الباحث العلمـي من مراعاة الأمانة حيث ينسـب كل رأي لصاحبه، ومن وجـوب الإِخلاص حيث لا يخفي بعض ما اهتدى إليه من حقائق تتطلب المناقشة والحوار، ومن الصدق البالغ حيث يكون الحق وجهته في البحث، دون أن يعتقد شيئًا يمليه الهوى ويحاول أن يظهـره في مظهـر الحق الصريح، مع الاعتراف بفضل سـابقيه من العلماء ممن وضعوا المقدمات وسـاروا في الطريق خطوات كانت مصـدر نفعه، ولعل ذلك كله مما يجـوز أن يندرج تحت عنوان الضمير العلمي.

والحق أن موضوع الضمير العلمي كان مصدر لجاج صاخب لدى من يفرقون بين العلم والخلق، حيث ذهب نفر من الباحثين إلى أن وظيفة العلم أن يحلل ما كان، خيرًا كان أو شرًا، ووظيفة

الخلــق أن يشــير إلى ما يجــب أن يكون ، وبذلــك أصبح العالم في رأيهم غير مرتبط بنفع الإنســانية فيما يكشف من اختراع ، ويبدع من نظريات ، فتلك وظيفة رجل الأخلاق ، وإذا كانت هذه وجهــة نفر من الماديين ، فإن الإســلام ينكرهــا كل الإنكار ، إذ يجعل الأعمال بالنيات ويثيب كل امرئ على ما نواه ، فلابد من نزاهة الغرض وســلامة الاتجاه والحرص علــى النفع العام ، إذ لا يمكن أن ينفصل الخلق عن العلم في منطق الإسلام .

التقدم العلمي:

وقــد كان التقــدم العلمــي الظافــر فــي هــذا العصــر مصدر إزعــاج خطير لمــن رأوا نتائج العلم توجه إلــى الدمار المبيد في الحــروب الطاحنة ، حتى قــام نفر من الدعاة يعلــن جناية العلم الحديث على البشــرية ، ويدعو إلى الرجوع إلى عهود البســاطة والتقشف ، لأن ما أتاحه العلم من تقدم حضاري لم يتم للإنسان سعادته ، بل زاده قلقًا وتوترًا ، حيث أصبح الكمالي ضروريًا من أجله ، فهو يحرص عليه حرصًا شديدًا ، فإذا تعذر الحصول عليه أصبح موضع لهفة وتطلع ، وقد كان أجدادنا الســالفون ينعمون بالضــروري نعمة ســابغة ، ويعيشــون فــي هدوء مطمئــن بعيدًا عــن التطلع الطامع ، والحرص المســتوقر ، ومــا كثرت حوادث الانتحــار إلا في بلاد التقدم المادي المفــرط ، حيث تثقل أعباء الحياة على من يريدون التمتع بكل شيء ، ينظرون إليه في أيدي معارفهم ، أو يقرءون عنه فــي الصحف والمجلات ، فإذا أضيف إلى ذلك ما جلبه التقدم العلمي في الحروب المعاصرة من دمار

مبين، كانت النتيجة فادحة وأصبح الخطر مما يتطلب العلاج.

والحق أن الذين ينظرون هذه النظرة المتشائمة يخلطون بين الوسائل والغايات، وبين العلل والمعلول، إذ ليس في قوانين البحث العلمي ما يجعل غازًا من الغازات متحتم البلاء، فيسخر في الدمار والتخريب، ولكن الإنسان هو الذي ينحرف بالقانون ليستخلص منه شر النتائج، والسموم قد تكون دواء إذا أخذت بحذر للقضاء على بعض الميكروبات ولكنها تقتل الإنسان قتلًا إذا قصد بها الإهلاك. فالعلم ليس خطرًا في نفسه، إنما الخطر كل الخطر في مجافاة العلم للخلق، إذ لو سيطر الخلق الديني على الباحث العلمي لمنعه أن يستجيب لبحوثه على اختراع المبيدات الكاسحة للعمران ولوقف بعلمه لدى النفع العام حين يجتنب ما يؤذي البشرية من وسائل التدمير والإفناء.

وإذا كانت بذرة الضمير الإنساني تكمن في كل نفس فإن هذه البذرة الكامنة قد جعلت بعض من اخترعوا القذائف المدمرة يحسون بقارص الندم وفيهم من تعاظمه سوء ما صنع فاختلط عقله وتسلمته المصحات العقلية لو كانت الرقابة الخلقية قائمة لدى من يصنعون هذه المدمرات ما استجابوا إلى رؤسائهم من الساسة هؤلاء الذين يريدون أن يسيطروا على الشعوب بوسائل الفتك ويرون في انتصار بلادهم عزة قاهرة فيرصدون الميزانيات الضخمة لرجال العلم كي يبدعوا ما يفتك ويدمر ولن يتم هذا التآمر المنكر إلا حين تنفصل السياسة عن الدين وحين يصبح رجل العلم آلة ...

نظرتان مختلفتان:

واجــه رجال الديــن في أوروبــا الخطر العلمي كمــا واجهها رجال الإِســلام في كتــب التراث ولا نســتطيع في مقــال موجز أن نبســط وجهات النظر على نحو فســيح ولكننا نشير إلى أن الســؤال الحائر : «إلــى أي حد يجوز لنا أن نفعل الشــر لنحصل منه على الخير »؟ قد وجد جوابه لدى أســقف «درهام» بإِنجلترا «الدكتــور هنــش» حين ضــرب المثل بتشــريح الحيــوان الحي فاســتعرض آراء مــن يذهبــون إلــى إباحته للحصول علــى نتائج صحية تفيد الإِنســانية ومن يذهبون إلى تحريمه باعتباره مصدر ألم مفرط لحيوان بريء حساس وانتهى إلى أن الحكم يرجع إلى النتيجة النهائية إذ ننظر : هل يأتي التشريح بفائدة عظمى يهون لديها ألم الحيوان الحي؟ أو أن الفائدة أقل وأضأل من أن يتعذب لهــا حيوان ضعيف دون مبــرر؟ وإذا أمكن تخدير الحيوان لدى التشــريح فهو أولى لدى الأســقف إلا إذا كان التخدير مما يضر بقضية البحث العلمي وقد وجد الأسقف الفاضل من عارضه من زملائــه ذاهبًا إلــى أن ألم الحيوان الحي مما يجب ألا يهتم به في هذا المجال!

فــإِذا انتقلنــا إلــى رأي علماء الإِســلام في التشــريح نجدهم يمنعــون منعًا باتًا أن يشــرح الحيوان الحــي، إذ للحيوان حرمة الإِنســان تمامًــا وتلــك نظــرة إنســانية يصــدر عنها التشــريع الإِسلامي في كل اتجاه أما الميت فالحيوان يؤكل بعد ذبحه ولا خلاف في جواز تشــريحه، أما تشريح الإِنسان الميت فللفقهاء

احتياط بالغ في شأنه عبر عنه الإمام الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم في فتواه المنشورة بمجلة الأزهر[٢] إذ استعرض أقوال أئمة المذاهب الأربعة في شق بطن من ماتت وولدها حي في بطنها حيث أجازوا شق البطن حرصًا على الولد ؛ لأن الحي أفضل من الميت وانتهى من بحثه الفقهي إلى قوله : «والذي يقتضيه النظر الدقيق في قواعد الشريعة وروحها أنه إذا كانت هناك مصلحة «راجحة» في شق البطن وتشريح الجثة من إثبات حق القتيل . . . أو تبرئة المتهم من تهمة القتل بالسم مثلًا أنه يجوز الشق والتشريح بعد المحاكمات» .

هذا الحذر الدقيق في إثبات حرمة الإنسان حيًا وميتًا يسيطر عليه الدافع الخلقي الذي فرضه الإسلام في تشريعاته الدقيقة ولو كان الدافع الخلقي قانونًا مسيطرًا على العلماء ما كان العلم التجريبي مصدر خطر كبير .

التكتم العلمي:

كان المرتقب المنتظر من رجال البحث العلمي أن يكونوا ذوي صلات قوية توجب تبادل الزيارات وتعاقب اللقاءات ليعرض كل فريق ما استطاع أن يصل إليه في جامعته من نتائج كما يقدم نماذج دقيقة لصعوبات يجدها في طريقه فقد تكون هذه الصعوبات مما أمكن تذليلها لدى فريق آخر ولكن المشاهد أن المؤتمرات العلمية تنعقد في عواصم الدول

(٢) مجلة الأزهر السنة التاسعة (رجب ١٣٥٧هـ)، ص٤٦٨ وكان الشيخ مفتيًا للديار المصرية في هذا التاريخ.

المتقدمــة بصورة دائمة لا لتكشــف الجديد من المخترعات بل لتكون ستارًا خادعًا وامتحانًا متفرسًا حيث يتربص كل معسكر بعلماء المعســكر المقابل فهم يتبادلون النقاش في حذر مفرط ثــم تنتهي اللقاءات ويفاجأ الناس باكتشــاف جديد أعد في ظل رهيب من الكتمان فإذا طلب المؤتمرون بحث هذا الاكتشــاف حيل بينهم وبين ما يشتهون إذ إنه في المنطق المادي وقف على من اكتشفه وعلى الذين يحاولون الوصول إليه أن يبذلوا الجهد دون استعانة بمن انتهوا إلى غايتهم من اكتشافه.

وإذا كان هذا ما نشــاهده ســافرًا دون نقاب فما معنى تكرار المؤتمــرات العلميــة إذا كانــت لا تبيح التبــادل الحقيقي؟ إن الذيــن يحرزون تقدمًــا اقتصاديًا فــي عالم الصناعــة يحتكرون السوق العالمية لمدة طويلة فترتفع الأسعار ارتفاعًا يعود بالربح علــى الدولة المكتشــفة وحدها وأخطر ما يكــون ذلك في مواد العقاقير الطبية حيث لا تتكلف غير الهين اليسير ولكن اختفاء ســرها يجعلها مصدر ربح خرافي يظل موردًا للدولة المكتشــفة حتــى يهتدي الباحثون إلى الســر العلمي فتهوي القيمة وما زلنا نســمع عن دواء يباع عند اكتشافه بخمسة دنانير ثم يهوي إلى نصف دينار.

ولــو تركنا الجانب الخلقي ناحيــة ونظرنا إلى الربح المادي وحــده فإننا نرى أن إذاعة هذه الأســرار توفــر كثيرًا من الجهود وتدعــو الفريق الآخر إلى أن يبــرز ما عنده فيتلاقى الجميع على النفع العام وذلك أمل لا تبشــر الأحداث المشاهدة بتحقيقه في

وقت قريب فما زال الشــره الطامع محــدود الرواق ولعل الذين يتبجحــون بتقدم الحضارة الأوروبية ينســون أن الإِســلام يمنع كتمــان العلم ويعده جريمة نكراء إذ فرض الله على ذوي الدراية من العلماء أن يبرزوا ما عندهم للناس وللعلم زكاة كالمال.

مثال تاريخي:

تحدث من أرخوا حيــاة الإمبراطور «فردريك الثاني» أنه كان يترك أمور السياسة إلى شئون العلم ليظهر براعته العلمية التي لا ظل لها من الحقيقة وقد دعا رجلين بريئين إلى الغذاء وأطعمهما حتــى امتــلآ وبعــث بأحدهما لينــام وبعث بالآخــر ليصيد وفي المساء أمر بشق بطنيهما ... ليعرف أيهما كان أحسن هضمًا؟ مــن أكل ونام أو أكل واشــتغل وقــد نافقه علماء بلــده فأظهروا إعجابهم بيقظته العلمية النادرة وأذاعوا عنه أنه أســهم في تقدم البحوث الطبية إســهامًا حقيقيًا ولو وجد الإمبراطور مستشــارًا أمينًا لأعلمه أن كرامة الإِنســان محترمة وأن من قتل نفسًــا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا وأن من الوسائل العلمية ما يقوم مقام تجربته الشنيعة دون إجرام.

إن الذيــن يبحثون عن صلاح المجتمع الإِنســاني ويحرصون على ســلام الشــعوب لن يشــعروا بتقدم حقيقي إذا تخلى العلم عن الخلق وعاش العالم بلا ضمير.

التفسير الكيمائي للأخلاق

سراب خادع:

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾

(النجم: ٢٨)

مـن كرامـة الباحث إذا تعـرض لتقرير رأي علمـي أن يذكره مـن كافة وجوهه وأن يعـرض آراء مخالفيه كي يناقش ما يتطلب النقاش لاسيما إذا كان هذا الرأي مخالفًا ما يعتقده أكثر الباحثين فيكون بذلك قد أرضى نفسـه وأراح ضميره حيث أبدى للقارئ كل مـا يتعلق بموضوعه ولـه بعدُ أن يذهب حيث يشـاء ولكن نفرًا من المتسرعين يتصدرون المجلات المرموقة اليوم ليعيدوا القول في شبهات ضعيفة قامت الأدلة على توهينها ويتمجدون بأسماء تنتسب إلى المادية الغربية في مجال الاستشهاد دون أن يذكروا أسـماء أخرى أسـهمت في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ونمثـل بمـا كتبه بعض الناس عما يسـميه التفسـير الكيمائي للأخلاق مدعيًا إن الإنسان مقهور في تصرفه مسير تحت دوافعه البيولوجية وتفاعله الكيمائي دون أن يستطيع الخلاص من هذه الدوافـع وهو ارتداد مسـرف إلـى مذهب قديم أظهـر الباحثون بطلانـه ولكنه يرتدي اليوم مسـوحًا علميـة تظهره في الرجوع إلى التفسـير الكيمائي والدوافع البيولوجية ومن حقنا أن نظهر هذا الرأي من وجهته الزائفة التي أغفلها المغرضون.

بعض الشبهات:

يقول أصحاب هذا التفسير الكيمائي: إن الإنسان في سعيه الدائب على سطح الأرض يستجيب إلى ما بداخله من دوافع مركبة تسيره كما يسير البحار السفينة فهو مضطر اضطرارًا جبريًا أن يسير وفق هذه الدوافع لأنه في هيئته وسلوكه خاضع للغدد الداخلية في كيانه الجسمي فالحب والبغض والنشاط والكسل وكل النوازع البشرية ليست في رأيهم إلا استجابة حتمية لإفراز الغدد الصماء والمجرم لا يكون مجرمًا – لدى هؤلاء – لأنه مدفوع بقواهر خافية من تركيبه الداخلي القاهر وهو تركيب وراثي لا حيلة له فيه وهذه الدوافع هي التي جعلت العلامة الإيطالي «سيزار لبروز» يجعل المجرم رجلا مريضًا فحسب فهو إذن غير مسئول عن جرائره أمام المجتمع لأن الجريمة ظاهرة مادية لعلة فسيولوجية تقوم في تركيب المجرم وازدياد بعض العصارات التي تفرزها الغدد أو نقصها مما يحدد سلوك الإنسان وفق ما تدفعه إليه هذه الإفرازات.

هذا لباب ما يقوله أصحاب التفسير الكيمائي للأخلاق وهو مضمون عتيق صوره الشاعر القديم حين قال:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

فالمسألة إذن ليست جديدة إلا في تفسيرها الكيمائي فحسب، أما نتيجتها الخداعة فقد خاض فيها الخائضون ودحضها المنصفون.

منطق حاسم:

إن أقوى صور المنطق الحاسم هو ما تشاهده بعينك وتلمسه بذاتك دون عناء وقد تخدع قليلًا ببعض التحليلات المعزوة للعلم الناقص فتميل إليها بعض الميل ولكنك أمام الحق الصريح الذي يلوح لعينك لا تستطيع أن تنكر أن بعض المجرمين الذين يندفعون للجريمة يقلعون عنها نادمين ويرون في ماضيهم عارًا شنيعًا يجب الخلاص منه وفيهم من يرحل عن بيئته إلى وطن ليكتب صفحة جديدة خالية من الشرور وأكثر هؤلاء لم تصنع لهم عمليات جراحية تستأصل بعض الغدد ولم يحقنوا بمادة علمية تزيد بعض الإفرازات أو تنقصها كي يخالفوا اتجاه الجريمة إلى اتجاه لطيف، فإذا كانت الدوافع البيولوجية أمرًا محتومًا لا محيد عنه فكيف تخلص المجرم من دوافعه وثاب إلى رشده وهو في تركيبه الداخلي لم يزد ولم ينقص عما كان عنه وقت الجريمة؟

وإذا كنا نرى الحيوانات غير العاقلة تستطيع أن تغير طبائعها فتأنس بعد توحش وتنزل نهمها الجائع في مجال الصيد لتقدم الفريسة إلى صاحبها مختارة عن طوع وتركيبها العضوي مماثل للتركيب البشري وتزيد على الإنسان أنها لا تصغي إلى منطق الحكمة ولا تعرف نتائج المستقبل بعين العقل كما يعرفها الإنسان فكيف استطاعت هذه العجماوات بقليل من التدريب أن تنسى دوافعها الداخلية وأن تخالف نظائرها في أدغال الغابات وأغوار الفلوات ثم لا يستطيع الإنسان أن يتغلب على

طبعه الخلقـي بعزيمة نافذة يبعثها دينـه الصحيح ويدعو إليها مجتمعه الناهض بالثواب والعقاب؟!، ثم إذا كانت هذه الدوافع ضربة لازب ففيم إنشـاء المـدارس والمعاهد؟ وفيم الحث على حسـن التربيـة ونظافة السـلوك؟! ونحن ندرك أثـر التعليم في ارتفاع المستوى الخلقي واجتناب الرذائل.

تطرف واعتدال:

إذا تطرف أصحاب التفسـير الكيمائي فذهبوا إلى أنه وحده هو الموجه للسـلوك الإِنسـاني فنحن في مقابلتهـم لا نلجأ إلى تطرف مضاد، فندعي أن هذه الدوافع الجسـمية، وتلك الغرائز النفسـية، لا أثـر لهـا في توجيه السـلوك، ولكننـا نعرف لكل ناحية حقها المعقول، فنقرر أن الإِنسان في مهب الريح تتجاذبه الطرق المختلفة شـمالًا ويمينًا، وله نوازعه الهابطة التي تميل بـه نحو الانحدار، وطوامحه العالية التي ترتفع به نحو الكمال، وللدين الصحيح والتربية البصيرة أثرهما الحاسـم في سـيطرة اتجـاه الخير وانحدار مـا يعارضه من اتجاه، فالإِنسـان في هذه الحيـاة كما يقـول العالم السـيكلوجي الكبيـر «أنتونان أميو» يشبه السفينة الضاربة في وسط المحيط، تلك التي تتركب من قطع خشـبية تتلاصق وتتماسـك، وهي في محتوياتها قد تكون تامة الأجهزة أو ناقصتها، وقد تكون بعيدة عن الساحل أو قريبة منـه، ولكنها إذا هبـت عليها الريح تجد بداخلهـا ربانًا مفكرًا مدبرًا يمسـك بسـكانها، ويحاذر عن طريق المـوج ليصل بها إلى طريق السلامة، مفكرًا فيما حوله ليرصد ما يراه من تقلبات

الريح والماء، هذا الربان الحازم هو الإرادة العاقلة التي تعرف عقبى الشر فتتجنبه خائفة وجلة، وترقب ثمار الخير فترتجيها تائقة مشتهية، وإذا فقدت السفينة ربانها فلا سلامة إذن.

وهذا ما يقرره التشريع العادل حين لا يأخذ المجنون بجريرة أو عقاب؛ لأن مدبر الكون يعلم أن الإنسان العاقل ذو قدرة على التصرف البصير، فإذا أطاع النفس الأمارة بالسوء فقد استوجب الجزاء، والذي يقول مكابرًا إنه لا يستطيع أن يتغلب على مزاجه الشخصي لتركيب داخلي، نسأله لماذا يخشى الوحش الكاسر إذا شاهده من بعد، ولماذا يحاذر الثعبان حين يعترض طريقه؟ إنه إذن يتمتع بقدرات تحميه من الخطر، ومن هذه القدرات: عقله المدبر، وإرادته المصممة! ونحن لا نطلب من أحد أكثر مما نطلبه من سائق السيارة، وربان السفينة، وقائد الطائرة، حين يناديهم الواجب أن يكونوا في مستوى القيادة والإشراف! أليس الجسم البشري أهم لدى صاحبه من سفينة أو سيارة تتطلبان الحرص والانتباه؟

الإمام الغزالي ودعوى التحجر الخلقي:

كان الغزالي -رحمه الله- من أبرز المعارضين لمن يقولون بتحجر السلوك الإنساني، وصلابة اتجاهه، فهو يعلم أن الهيئة الخلقية الراسخة في النفس تعدل من حال إلى حال فتكسب من البيئة ما تسوء به بعد أن تحسن أو ما تحسن به بعد أن تسوء، وقد ندد بمن يغفلون هذه الحقيقة السافرة فقال[3]: «إن بعض من غلبت عليهم البطالة يستقلون المجاهدة والرياضة وينفرون

---

(٣) إحياء علوم الدين، جـ٣، ص٤٨، طبعة الحلبي.

من الاشتغال بما يزكي النفس وراء دعوى أن الأخلاق ثابتة لا يمكن تغييرها، ولو كان ذلك كذلك لبطلت الوصايا القرآنية والحكم النبوية، ولما قال رسول الله ﷺ: «حسنوا أخلاقكم»، وكيف ينكر هذا في حق الإنسان العاقل، وتغيير خلق البهائم ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من الشره إلى القناعة والتأدب، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تفسير للأخلاق».

والغزالي في هذا الاتجاه يرد على ابن مسكويه حين ذهب إلى جمود الطبائع وإن لم يصرح باسمه، وهو مذهب إغريقي مال إليه الفيلسوف المسلم دون دليل؛ لأن العيان المحسوس يهدمه ويأتي عليه من القواعد، ولا أدل في هذا المجال من الاستشهاد بأقوال من الشعر تنحو منحى القائل:

ومكلف الأيام ضد طباعها

متطلب في الماء جذوة نار

إذ إن الشاعر لا يصدر في قوله عن دراسة مستأنية، ولكن يخضع لثورات نفسية تجعله يقول بالأمس ما ينكره في الغد، ومجال البحث العلمي في مسائل التربية والأخلاق أضيق من أن يتسع لكل كلام، فما ظنك بمجال المسئولية والجزاء؟!.

هروب إلى التعليل النفسي:

وأعجب ما تقرأ أيضًا في التفسير الكيمائي للأخلاق: محاولتهم الاحتماء بما يتوهمون من التعليل النفسي حين يلتمسون الأعذار للمذنب في جرائمه بأنه قد وقع تحت «استحواذ نفسي» رهيب ملك عليه آفاق تفكيره، فهو يفكر في الجريمة حتى ينتقل من حيز التفكير إلى واقع التنفيذ، وليكن

بعــد ذلك ما يكون، وفي هذا القول ما يوهم أن الاســتحواذ أمر لا مفــر منه حين ينشــب أظافره في روح صاحبــه، ولكن الناس درجات متفاوتة، فمنهم من يملك تلقائيًا زمام نفســه فيستطيع التأني على هواجس الشــر، ومنهم من يحتاج إلى علاج نفســي حتى يســيطر على الزمام، وما أكثر هؤلاء وأولئك، والقليل من يريــن تحت كابــوس الاســتحواذ، والله أدرى بحالته، وهو يعفو عــن كثير، وحين نقرر ذلك لا ننكر أن النفس تحتاج إلى جهاد شاق كي تســتغنى على جواذب الهبوط، ولكننا نعترف أن هذا الجهاد يؤتي ثماره الطيبة في أحيان كثيرة، بحيث تنتصر الإرادة الحرة على التخاذل الموبق، وإذا كان جهاد النفس حربًا تحتاج إلى أســلحة من الصبر والعزيمة والإيمان، فإن الانتصار في هذه الحــرب أمــر مشــاهد ملمــوس، وللمنتصر لذة بهيجة تســعده بالاطمئنان حين يثق بقدراته النفســية على الانتصار إذ ليســت الهزيمــة حتمًــا مفروضًــا كما يتوهــم الواهمون، وإن إشــراف النفــس بالأمل لخيــر من إظلامها باليأس، فرحمــة الله قريبة من المحسنين.

الثرثرة الجوفاء

يلاحظ الذي يتسمع أحاديث العامة في مجالسهم المتعددة بساطة ما يتعرضون إليه من نواح مختلفة، فهم يقطعون الوقت الطويل في ثرثرة جوفاء لا تملأ فراغًا أو تُشبِع عاطفةً، وقد يُعذَرون في ذلك؛ حيث لم تُتَح لهم التربيةُ الناضجة التي تتجاوز السطحَ البارز إلى الأعماق الدفينة، ولكنَّ المؤسف حقًا أن تكون أحاديثُ الخاصة من بعض المثقفين في أكثر أوقاتها على غرار أحاديث العامة...، فتظل تسمع وتسمع متضايقًا متضجرًا، وقد يلجئك السأم الممل إلى الفرار السريع دون تريث وإبطاء.

ومعلوم أن الناس يتزاورون ويتجمعون في مناسبات كثيرة ترويحًا للنفس في لقاء مؤنس وسمر مريح، وفي مطارحة الأحاديث تتكشف نواح مهمةٌ يجدر التنبيه إليها والاستفادة من نتائجها؛ إذ إن الجدب الموحِش ظاهرةٌ بارزةٌ تسم هذه الاجتماعات بطابعها العقيم، ولا بد لنا من نظرة فاحصة نزن بها ما ننفق من أوقات وما نندفع إليه من لجاجات.

وأنا أعلمُ جيدًا أن الترويح عن النفس هدف مقصود من التزاور والتجمع، فليس المجال متاحًا للمناقشة العلمية، ولن يعقل أن تكون أحاديث الأصدقاء دروسًا مهمة في بعض العلوم والفنون، ولو أنها كانت كذلك -في نطاقها المنهجي الرتيب- لأصبحت مدعاة السأم والنفور، فنواجه منها على دسامتها النافعة ما نواجهه الآن من الثرثرة التافهة على هزالها المريض، ونكون بذلك قد استشفينا من داء بداء، فالسأم والملال نتيجة

واحدة في الحالتين، وأظنك بعد ذلك تسأل كيف يدور الحديث وعلى أي وضع يكون؟

إن مشارب الناس متعددة غير متحدة فلديهم -على اختلاف طبقاتهم- تباينٌ عجيبٌ يدفع إلى الدهشة والتساؤل، فهذا مغتاب جريء لا يكف عن انتقاص معارفه وتتبع عوراتهم ثم هو يفرض عليك حديثه الآسن الكريه دون خجل أو حياء، وذلك ناقد يتصدى للمعارضة والجدل في أبسط ما ينبغي أن يُتَّفق عليه من الأمور دون أن تكون له وجهة نظر غير اللجاجة والمراء، وذاك متحدث لا يفارق طفولته في رجولته، فتظل أحاديثه الطويلة تدور حول نفسه وأهله، فإذا شاهد تبرمًا من سامعه عده إهانةً تُؤوَّل في اعتقاده إلى حِقد وضغينةٍ، وتترك في سويدائه شجونًا سوداء تكدر عليه صفاءه، وهؤلاء وأمثالهم يجدون في سمر المحادثة ترويحًا عن خوالجهم المتوثبة، فكيف تنظم أحاديث الناس مع هذه الأنماط المتنافرة حتى تعود على السامع والقائل معًا بالفائدة والاستمتاع؟

أعتقد أن تنازل الإنسان عن أنانيته الملحة نجاح كبير لمجلسه؛ إذ إن هناك حبًا كامنًا للسيطرة على النفوس، يتطلب المنافذ الواسعة للوثوب في كل مناسبة تحين، والحديث منفذ متسع يطفِر منه المتحدث فيفسح المجال لرغباته ونزعاته، فما يكاد يسمع كلمة عابرة عن شيء ما، حتى يندفع في الحديث عنه دون أن تتحدد في رأسه أفكاره وعناصره، وقد يتطرق منه إلى موضوع آخر يلم بنواحيه دون أن تكون هناك علاقة واضحة

أو صلة ماسة، فيظل يُبدِئ ويعيدُ في حديث بعيد عن المشاعر منبت الصلة بالسامعين، وفيهم بلا ريب من تتملكه شهوة الثرثرة كصاحبه فيضيق به ذرعًا، إذ سيطر على أصحابه بهرائه الغث دون أن يترك له مجالًا يُرضِي مَنَازعه، وقد يتلمس السبيل إلى معارضته فيفتح باب المهاترة والادعاء، وإذا جنح إلى السلامة تلمس البادرة العاجلة فاندفع هو الآخر بذكر ما يتواثب في نفسه من أوهام، وهكذا يتصل الحديث في غير طائل، وكأن كابوسًا ثقيلًا قد ران على السامعين، فهم يجثمون تحته في ضيق مقلق، وما يكادون يفترقون حتى يتنسموا بعض الراحة مما يكابدون، وكأنهم كانوا يواصلون كفاحًا مقيتًا يتطلب بعد انقضائه كثيرًا من التسلية والترويح، ولو تغافل كل إنسان عن أنانيته قليلًا لرحم سامعيه من هَمٍّ ناصب ولغوٍ مرير.

لا بد إذن من علاج ناجع لهذه الثرثرة البغيضة، ولن تُسحق الأنانيةُ من الناس في يوم وليلة حتى نظفر بالشفاء السريع، ومكافحة الداء في هذا المرض الكريه تقع على السامع الحصيف، فهو الذي يستطيع أن يوجِّه الحديث وجهةً صالحةً دون تصادم سافر، فقد يسأل سؤالًا لطيفًا يرمز إلى الإيجاز المقتضب في غير مواجهة، وقد يخرج بالحديث حينًا آخرَ من نطاقه الشخصي إلى مدًى فسيح عام يتعلق بمشكلة قومية أو حادثة مشتركة تشغل الجمهور، وسيشعر الثرثار لا محالة ببعض الضيق من انقطاع تياره الخاص، ولكن الابتسامة المصطنعة والرفق الشامل والبشاشة المتصلة، كل أولئك قد

يهون من شـجونه، بينما يتلقى درسًا عمليًا يكشف عن شذوذه الأناني، فلا يعود إلى اللغو السقيم، كيلا يلدغ من جحر مرتين، وبذلك يتعلم الناس شيئًا فشيئًا آداب الحديث.

وقـد يكون فـي بعـض المجالس شـخصيةٌ مرموقةٌ تسـيطر بمكانتهـا على المجتمعين، وتتجه لها الأنظار والأسـماع، وإذ ذاك يجـب أن يُلقَى عليها العبء -إن عُدَّ ذلك عبئًا- في توجيه السـمر وتلوين الحديث، ومتى سلم صاحب هذه الشخصية من الأنانية الأليمة فقد ظفر المجلس بكسـب مفيد، إنه يسـتطيع أن ينتقـل بالحديث إلـى غير وجهته، إذا أحـس بعضَ اللجاجة والفضـول، كمـا يمكنه أن يرتفع بمسـتواه إلى حدث تُسِـيغه الأفهامُ ولا ترفضه، وقد يكون من اللائق أن يُفسِح بعضَ الشيء لغيـره، مكتفيًا بالتعليق المقنع، فإذا تم ذلك شـعر الحاضرون براحة المسـتفيد الذي تشبعت روحه وامتلأت نفسه من شراب لذيـذ لم يتطلـب عنتًا في الإعداد والتهيئة، ويرجع إلى السـمر لذاذاتُه الخالصةُ وأثره الحميد.

وقـد يظـن بعض الناس أن السـمر بالمجالـس لهو خالص لا سـبيل إلى تقييـده بأوضـاع أو اتسـامه بتقاليـد، وربما كانت الفكاهـة المضحكـة حينئذ إحـدى مميزاته، وهـذا صحيح إن اسـتقام على نهجه القويـم، ولكننا نجـد الفضوليين يجنحون به إلى الثرثرة والتشـدق حتى يعود سخيفًا مقيتًا وهراءً مشينًا، بـل كثيرًا ما يخطئ المتسـامرون معنى الفكاهـة فيظنونها في التسـفل اللفظي والولـوع بنـوادر الرعاع ومضحـكات الطغام

ممــا لا ينبغي أن يتكشــف الحديث عنه فــي مجتمع ما، ونحن لا نريــد أن نضيق على الناس منافذ الترويــح، ولكننا نحذر من الانكشــاف الفاضح الذي يبعث على الاشــمئزاز لدى الضمائر الحية، فلا تتحمل الإغضاء عنه بحال، والواقع أن الإنسان اللبق يستطيع أن يعبر عن أدق الأمور الحرجة بأسلوب مقنع لا يحرج ســامعًا أو ينحط بقائل، وفي اللغة العربية من الكنايات الطريفة مــا تتضــاءل أمامه الحقيقة الســافرة، فالتبذل فــي أكثر وجوهه يرجــع إلى انحطــاط اللفظ، وضيق التعبير أكثــر مما يرجع إلى الفكرة الهابطة والمعنى الجارح، ومتى لاحظ المتسامرون ذلك فلهــم أن يتحدثوا كما يشــاءون دون مؤاخذة وانتقاص، على ألا يكــون تندرهم على حســاب فرد آخر فيخــرج بهم الحديث من الفكاهة العذبة إلى النميمة والاغتياب.

ويُدهَــش من يطالع حيــوات كثير من عظمــاء التاريخ وقادة الفكــر في الأمــم؛ إذ يجد أن نــدوات المجالس قــد حملت في طياتهــا بذور تكوينهم وعناصر شــخصياتهم، فقد أتاحت لهم تفهم النفســيات المعقــدة... كما لقنهم الاحتــكاك الخطابيِ أساليب المرونة والمداراة، فتكاملت ذواتهم الإنسانية تكاملا ناضجًــا يقوم على ســبر الأغوار وإظهار الدوافــع، بل إن الفائدة العلميــة وحدها ببعــض المجالس النافعة قد تُغنِي غناءَ مدرســةٍ ذاتِ أســاتذة ومرشــدين، ونحن نعلم أن مجالس الأستاذ الإمامَ محمــد عبده قــد خرَّجت وحدها شــاعرَ النيل حافــظ إبراهيم، فكان يسمع باسم الكتاب لأول مرة من متحدث فاضل في ندوة

الإمام، فيبادر إلى تصفحه واستيعابه، ويرى في مصاولة العقول غذاء دسـمًا يُغنِي غناء الدراسة الشخصية، بل ربما فاقها في بعض أحواله؛ إذ إن المتحدث من أفاضل النابهين يذكر دائمًا الرائعَ المنتخبَ من أفكاره، ومعارفه، فلا يُتحِف رفقاءه بغير الدسم المفيد، في حين أنك تدرس الكتاب من الكتب فتجده تارة شهيًا نافعًا، وتارة أخرى يخلف ظنك به فيطالعك بالتافه الممجوج، وتتحسر حينئذ على الوقت المبذول في استيعابه والمال المُعطَى في شرائه.

وإذا كانت الندواتُ تضمُّ أشتاتًا مختلفة من الناس فإنها تتيح بذلك معارف متنوعة، فإذا اجتمع المهندس والطبيب والقاضي والمدرس في مجلس واحد، وامتد بساط الحديث، فيتحدث كلٌّ بما يكشف عن ثقافته ويبرز عن مناحيه، ولن نزعم أن كلًا من هؤلاء سيتحدث حديثًا علميًا عن مهنته الخاصة، فذلك ما لا يكون بحالٍ، ولكن وجهات النظر دائمًا تتكون من ثقافة الإنسان، وقد يتلاقى الجميعُ لدى فكرة معينة ولكن فلسفتها الخاصة وتعليلها المنطقي يختلف لدى كل متحدث وفق منازعه العلمية واطلاعاته الشخصية، وفي ذلك كله تلقيح لذهن، وارتشاف من منابع الحكمة، لو قدرت المجالس قدرها فرَبَأَ جلساؤها بأنفسهم عن السفاسف الوقتية وذكروا نعم الله على العقول والأذهان، وفي الدعابة التي تتخلل الحديث، وفي سمات المتحدث المهذب وفي التندُّر بالظواهر القلقة في غير تجنٍّ ولا إسراف، في ذلك كله ما يحيل الندوة إلى أمسية حافلة

فاتنة، وهناك شعور نفسي بالرضا والاغتباط يغمر الإِنسانَ حين يرتفع بحديثه إلى مستوى ثقافي حميد، فيلمس تفوقه الذهني ويشهد إعجاب سامعه وتقديره، وفي ذلك إرضاء لبعض المنازع الكامنة في أطوائه مهما حاول التنصل منها، ومهما استترت عنه فخدعته إلى حد ما، ولكنها لم تنعدم انعدامًا يحتم علينا أن نتجاهلها أو نتضايق من إعلانها، إذ إن الإِنسان هو الإِنسان.

وإذا كان ارتقاء الحديث يتيح خيرًا كثيرًا للسامعين، فإنه من ناحية أخرى يدفع شرًا مستطيرًا تنجم بوارقه بين الحين والحين، فتفاهة الموضوع تجعل من اللَّجوج الملحاح ثرثارًا كثير التخبط والسقطات، وهو لضيق نظره يتعرض للناس مصرحًا بالأسماء مستدلًا بالوقائع، ولا بد من نقدٍ يَزيد ويتسعُ حتى يصبح سِبابًا، فإنْ لم يبلغْ ذلك فهو تعريض مفصح لا يعدم من يحمله إلى صاحبه المنقود فيؤجج الضغائن ويثير المواجد، ورب كلمة عابرة قذف بها قائلها في غير تدبر عاقل فتحت أبواب التطاحن والشجار بل إن كثيرًا من الحروب المدمِّرة في تاريخ البشرية كانت نتيجةً لحديث تُبُودل وثرثرةٍ قالها صاحبها دون اكتراث، فعادت على الأمم والأفراد بالويل والثبور.

ومن هنا دعا الإِسلامُ إلى النجوى الصالحة والكلمة الطيبة، فقال الله عز وجل:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٤)

وروى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليُضحِك بها المجلس يَهوي بها أبعدَ ما بين السماء والأرض، وإنَّ الإنسان ليَزِلُّ عن لسانه أشدَّ مما يزل عن قدميه». ولكبار المفكرين من ذلك نفثاتٌ رائعة لا يسعها هذا المجال.

إن من احتقار المواهب الإنسانية أن يفيض بعض عقلاءُ القوم في حديث ممرور لا يجلب غير الحنق والضيق، وقد تكون التفاهة معرة للجهلاء، ولكنها للمثقفين كارثة يعز فيها الصبر ويندّ عنها العزاء، فليت الذين أوتوا نصيبًا من المعرفة يتركون هراءهم الآن إلى سمرٍ يُنعِش الأرواح ويسمو بالأخلاق!!

***

صدق الحديث

كان عصرِ النبوة على قصر مداه -إذا قيس بما تلاه من العصور- حافلًا بشتى المواقف الصالحة للاحتذاء، وكأن الله -عز وجل- أراد به أن يكون مجالَ العبرة للمسلمين في شتى الأحقاب، وملتمس الهداية للحائرين، يسيرون على ضوئه ويعشون إلى ناره. وهذا بعضُ ما يُفهَم من قول رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني» (متفق عليه)؛ لذلك كان من تيسير الله -عز وجل- ألَّا تزال تشع العظمة منه على الناس بأنوارها الباهرة، فما من موقف لصحابي كريم إلا وهو مجالٌ طيبٌ لتأمل المهتدين، أمَّا رسول الله ﷺ، أشرف الخلق، فناهيك بمواقفه.

لقد تحدث الأخلاقيون عن ضرورة الصدق، وعدوه شرطًا مُهِمًا لصلاح المجتمع وهبوا يكتبون الصفحات في ضرورته، ثم حلا لهم أن يضربوا الأمثلة من واقع التاريخ، ولكلٍّ في ذلك وجهة يهدف إليها.

ولكن رجال الأخلاق من أبناء الإِسلام لا يجدون في مجال الاستشهاد أعظم تأثيرًا ولا أقوى نفاذًا من عهد النبوة الكريم؛ لأن رجاله رضي الله عنهم قد شاهدوا مشرق الوحي، ونعموا بصاحب الرسالة، فرأوا الصدقَ المجسَّد إنسانًا يتكلم ورجلًا يعمل ونبيًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فكان هذا القرب القريب من رسول الله ﷺ قوة نفسية ترتفع بأرواحهم، وتسمو بمعاملاتهم، حتى صار الواحد منهم كتابًا مفتوحًا ناصعًا يقرأ فيفيد.

لقد سجلتْ كتب السير سيرة بلال ﵁ بما ذاع واشتهر لدى الناس، بحيث أصبحت حياة هذا الإِنسان الكريم مما تستحيل على النسيان، ولن أشير هنا إلى صبره واحتماله وما لاقى من الأذى في سبيل الله مما ينبئ عن إيمان قوي تتزلزل الراسيات ويستقر، فكل ذلك مستفيض مشتهر، ولكني أنقل شيئًا من حديثه لا أظن الكثيرين ممن درسوا سيرة بلال قد ألمُّوا به، وهو على وجازته مما يبعث القدوة ويدعو إلى التقدير.

روتْ كتب التاريخ فقالت: «خطب بلال ﵁ لأخيه خالد بن رباح امرأة من بني حسل من قريش، فقال بلال وهو يقدم نفسه وأخاه لمن يريد مصاهرتهم: «نحن من عرفتم يا قوم! كنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالين فهدانا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله!.. وأنا أخطب إلى خالد أخي فلانة منكم، وهي ذات حسب ودين ومروءة، فإِن تُنكحوه فالحمد لله، وإن تردوه فالله أكبر»!.

سمع القومُ وسكتوا قليلًا، ثم أقبلَ بعضهم على بعض يقولون: «هو بلال» وليس مثله من يدفع!.. ثم أجمعوا على قبول الخاطب، فخرج بلال وأخوه وقد قضيا وطرهما، ولكنَّ خالدًا قد وجد لحديث أخيه بعض الألم، فقال له: «يغفرُ الله لك يا بلال، ألا ذكرتَ سوابقَنا وشواهدَنا مع رسول الله ﷺ» فصاح بلال: «مَهْ يا خالدُ، صدقْنا فنفعَنا صدقُ الحديث».

في هذه الأسطر القليلة ما يشير إلى اختلاف وجهتَيْ النظر بين بلال وأخيه خالد، فقد كان من رأي الخاطب الراغب أن يتحدث أخوه للقوم عن مآثرهما في الإِسلام مِن سبقٍ للدينِ

الجديد، وجهادٍ في سبيل الله، وإحرازٍ لثقة نبي الإسلام، فذلك مما يرتفع به قطعًا على كثير من السادة! وهذا ما يوحي به الموقف في رأي خالد؛ إذ إن المقام مقام قبول أو رفض، ولن يتيسر القبولُ إلا بالتحدث عن مآثر السبق، ومواقف الجهاد، وموضع الحظوة من رسول الله ﷺ !.. وذلك مسلك ينتهجه الخاطبون في معرض التفاضل والموازنة.. ثم إن بلالاً رضي الله عنه لو وافق رغبةَ أخيه وسلك المسلكَ الذي يريده في اتجاه الحديث ما خالف الواقع الوضيء في شيء؛ فتاريخه عامر بالتضحية، مليء بالنضال، فعلامَ يترك هذه المحاسن الباهرة؟

وكيف يميل بالحديث إلى جانب متواضع، لا يثقل كفة الميزان ثِقَلًا يميل بأخيه إلى الرجحان..؟

ولكن بلالًا رضي الله عنه كان أبعدَ نظرًا وأصوبَ اتجاهًا من أخيه، فهو يعلم أن المصاهرة تقتضي المكاشفة الصريحة والصدق الصحيح، والحديثُ عن جهاده في الإسلام لا يمحو تاريخه من الرق في ذاكرة الناس، فقد يكون فيمن يتقدم إلى الخطبة لديهم من بني الحسل من لا تزال نعرة الجاهلية تعصف برأسه، فيرى تقدير الناس على غير ما هدى إليه الإسلام، ثم إنه -لا شك- يعرف أن جهاده في سبيل الله ليس من الخفاء بحيث يتحدث به، فهو مشتهر ذائع، فلا بد إذن أن يواجه الموقف من أعسر أبوابه لينتظر ما سيكون.

وقد كان الصحابي الجليل لَبِقًا في قوله: «وإن تردوه فالله أكبر»؛ إذ إنه عرض في هذه العبارة الدقيقة الموجزة رأي الإسلام

الذي يدينون به، ومعناه الصريح: إنكم إن ترفعتم علينا ورأيتم أنفسكم أكبر وأعظم من أخي، فالله -عز وجل- أكبر منكم ومن كل كبير، فإياكم والكبرياءَ! وهذا بعضُ ما جعل بني الحسل يتلاحظون متسائلين عند سماع هذا الكلام، ثم يقبل بعضهم على بعض وهم يقولون: هو بلال وليس مثله من يدفع..!

فانظر إلى أثر الإسلام في إزالة الفوارق الجاهلية وتعميم الأخوة الإسلامية في دين صار أبناؤه سواسية كأسنان المشط، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم إذ لا فضل لعربي على عجمي إلا بتقوى الله، ولك أن تسأل: أكان بلال -لولا الإسلام- ممن يجرؤ على أن يتقدم إلى حُرَّةٍ قرشيةٍ فيخطِبها لأخيه مهما أُعتِق وتحرَّر؟! أما والله لو جرؤ على ذلك في مجتمع جاهلي لبرقتْ أسنةٌ وسالتْ دماءٌ..!

ولنا أن نقف عند قول خالد لأخيه: «يغفر الله لك، ألا ذكرت سوابقنا وشواهدنا؟». فإن طلب المغفرة يصور ما يراه خالد من نشاز أخيه في هذا الموقف، حيث سكت عن الفضائل اللائحة فلم يشر إليها في شيء، وقد أدرك بلال ﵁ ما يعتمل في نفس صاحبه، فقال مسكِّنًا إياه: مَهْ، صدقتَ فأنكحك الصدقُ؛ لأن الصحابي الجليل ﵁ يرى الخيرَ كلَّ الخير في هذا الخُلُق النبيل حتى لو لم يتحقق ما ينشده من تزويج، فقد يكون هذا خيرًا لا يدريه؛ إذ كثيرًا ما تمنَّى الإنسانُ الشيءَ دون أن يفطن إلى ما سيجلبه عليه من شرور، وقد رأى بلالٌ بعد خروجه أنه صدق فنفعه الصدق وحده، وفي هذا اعتبار.

هـذا موقف مـن مواقف الصـدق نقرنه بموقف آخـر لعربي صريـح، وقـد كان يرى الصدق مـن خصائص الرجولـة التي لا تفارقهـا بحـال، فهو يتفرس فـي وجه صاحبه ليسـمع منه وقد ظهـرت مـن ملامحه دلائـل تنطـق بالصـدق، وإذ ذاك لا مجال لمناقشـته حتى في أدق المسائل وأحرج المواقف؛ إذ لا يناقش إلا كاذب محتـال، أمـا العربـي الأصيـل فصـادق يقـوم بأعباء الرجولـة الحقة، حين يتخذ الصدق سـمة لا تفارَق، وخاصية لا تـزول، ويزيـد هذا الموقف بهـاءً وروعةً، وجميـلَ عظةٍ أنه مع رسول الله ﷺ ، وهو الصادق الأمين.

نقل عن صحيحَي البخاري ومسـلم مثـالًا فذًا لهذا الاعتقاد الحاسـم في حتمية الصـدق، وهو مثال رائـع يتضح في موقف أعرابي صادق من سـعد بن بكر، وفد على رسول الله ﷺ فسأله واسـتمع إليه، ثم أعلن إسـلامه غيـرَ ناكص؛ إذ وثـق بصاحبه وثوقَ من يعتقد أن الصدق طبيعة الرجل القائد، فما عنه محيد.

لقد أخذت كتب رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة تتطاير إلى أكثر الأصقاع العربية في شـبه الجزيرة لتدعو الناس إلى كلمة الله، وقد جاء خبرها إلى ضمامة بن ثعلبة أحد سـادات بني سـعد بن بكـر، ففكر وتأمل، ثم رأى أن يرحل بنفسـه إلى المدينة المنورة ليقف شخصيًا على خبر الدعوة الجديدة ويرى صاحبهـا الكريم، فاقتعد راحلته ومضى بهـا وحده يصل الليل بالنهار حتى أناخ بباب المسجد النبوي الشريف، فعقل بعيره، ونظـر إلى جماعة من المسـلمين يتحدثون، فتقـدم إليهم دون

تلكؤ وصاح في قوة: يا قوم، أيكم محمد رسول الله؟

فنهض أحد الصحابة وأشار إلى سيد المجلس، وكان ﷺ يجلس متكئًا ووجهُه يتلألأ كالقمر الأزهر، فدنا منه ضمامةُ بن ثعلبة، وسأل في اهتمام: أأنت ابن عبد المطلب؟

فرد الرسول بالإيجاب..

فاندفع ضمامة يقول: إني سائلك فمشدِّد عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسك.

فقال رسول الله ﷺ مبتسمًا: سلْ ما بدا لك..

فقال ضمامة: أسألك بربك ورب من قبلك: آللهُ أرسلك للناس كلهم؟

قال رسول الله ﷺ: اللهم نعم..

فقال ضمامة: أسألك بربك ورب من قبلك: آللهُ أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

فقال رسول الله ﷺ: اللهم نعم..

فقال ضمامة: أنشدك بالله تعالى: آللهُ أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على الفقراء؟

فقال رسول الله ﷺ: اللهم نعم..

فصاح ضمامة: لقد آمنتُ إذنْ بما جئتَ به، وأنا ضمامة بن ثعلبة أخو سعد بن بكر.

نقرأ هذا الحوار في كتب السنة المطهرة فنقف على شيء كبير في مغزاه.. فضمامة قد اعتقد أن الصدق حتم مفروض على كل إنسان ينتسب للكمال، وقد جاءته أنباء الدعوة المحمدية

فـي باديتـه البعيدة فألمَّ بأحوالهـا حائرًا غير متيقـن ثم رأى أن يخبر الأمر بنفسـه فلا يصغى لأحد حتى يقابل الرسول ويناقش ويسمع ويرى ثم يصدر الحكم فأسرع بالرحلة إلى المدينة وهو في طريقه المديد يفكر في أمر هذا الدين الجديد ؛ إذ صار شغله الشـاغل، وهمه الوحيد، وكانت في الأعرابي السـعدي فراسةٌ حصيفـةٌ، فأخـذ يتأمـل وجه رسـول الله ﷺ ليأخذ مـن مظهره الواضـح ما ينبئ عن مخبره الشـريف، حتى امتـلأت عيناه من نوره، تقدم يسـأله عن ربه راصدًا ملامحه، متأملًا قسماته متابعًا إجاباته.. وقد أخذ من ذلك كله ما تيقن به صدق رسول الله ﷺ، فهو إذن نبي؛ إذ لا يمكن لمثله أن يكذب على الناس، وأولى به ثم أولى ألا يكذب على الله، وكان لا بد أن يُعلِن إسلامَه حين اقتنع فبسط يده ليبايع، ثم تولى.

إن العناصـر الممتـازة التـي تَصَوَّرها ضمامةُ في كل إنسـانٍ يرتفع بصفاته إلى مسـتوى الأحرار قد قربت المسـافة وشـيكًا بينه وبين الإسـلام، فلئن كان هذا الأعرابـي الحرّ يرى الكذبَ سـبةً شـنعاءَ، وخطيئةً نكـراءَ، فقـد رأى بفراسـته الصادقة أن محمدًا ﷺ ممن يقدسـون الصـدقَ فلا يكذبـون، والأمانةَ فلا يخونـون، وجاء إسـلامُه نتيجة حاسـمة لتقديره التـام لتبعات الرجل الحق والقائد المثل. وليت شعري إذا انتشر مبدأ ضمامة -وهـو فـي صميمه مبدأ الإسـلام- فحرصَ النـاسُ على الصدق وعـدُّوه رأسَ الفضائـل، وتجنبـوا الكذبَ وعـدُّوه أُسَّ الرذائل، أقول: إذا انتشـر مبدأُ ضمامـة.. أما تتحقق المدينة الفاضلة في

المجتمع البشــري فنحيا جميعًا في ســعادة ونور، لا كما نحيا الآن في تعاسة وظلام ونعيش بين ملائكة مطهرين لا كما نعيش بين ذئاب وضباع..؟!

وتســألني عما تــمَّ بعد رحيــل ضمامة إلى قومــه.. لقد روى الطبري عِن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه جَمَع أعيانَ قبيلته فحمد الله وأثني عليه ومدح رسولَه وعظَّمه وحبَّذ الإِسلامَ وفضح اللات والعزى فما أمســى في قبيلته رجلٌ أو امرأةٌ إلا أســلم حتى قال ابن عباس: ما سمعنا بوافدٍ كان أفضل من ضمامة بن ثعلبة.

هذا هــو ضمامة، وذاك هو بلال، فما أشــدَّ حاجتنا اليومَ إلى مــن يقتفي أثرهما في أمانة القولِ وصــدق الحديث. ولهما بعدُ في تاريخ المسلمين أشباهٌ وأمثالٌ.

انتفاع المسلم بوقته

أكثر ما يَجني على الذكاء أن يكون صاحبه ضعيف الخُلُق خائر العزم، فلا يستطيع أن يجني ثمرة عقله الثاقب، أو يستغل ثروة فهمه الصائب، ولو رزق صاحب الذكاء خلقًا قويًا، وعزمًا صحيحًا، لتَرك -في ميدان العمل الجاد- ما يُسعِد أمتَه، ويرفع ذكره، بدل أن تضيع موهبته بددًا في الحياة، فلا تعود بنفع شخصي على ذاته أو بفائدة مثمرة على ذويه.

وأقول في ميدان العمل الجاد وأعني به ما رجع بالسعادة على الإنسانية في أي فرع من فروع الحياة ذات الغصون المتشعبة في شتى الجهات؛ لأني أعرف وأقرأ عن كثير من ذوي الذكاء النفاذ والمهارة المدربة، ما يشعل صدور الغيور بالحسرة حين يعلم أنهم يقضون الوقت عاملين دائبين، ولكن فيما يثير الضغائن، ويورث الأحقاد، فإذا كتبوا أو ألفوا أثاروا الفتن وأحيوا الشبهات، وبحثوا عن وسائل الشقاق والتدابر، وإذا احتالوا ففي إزعاج النفوس وضياع الحق وتثبيت الباطل، وكأن التكاسل وضياع الوقت أجدر بهؤلاء من ملء زمانهم فيما يُتعِس ويُشقِي! وكنا نرجو -مع تقدم الحضارة وازدهار العلم- أن تتقدم الأخلاق والفضائل، ولكنها -كما قال أحد قادة المفكرين- حضارةٌ بلا أخلاق.

لنترك هؤلاء في غيهم يعمهون، ونعود إلى من يُنتَظر منهم الخير إذا ملئوا أوقات فراغهم فيما يفيد فنعلن ما يؤتى صاحب الذكاء من ناحية تكاسله المفرط؛ إذ يستسلم إلى الراحة

الساكنة فيمر عليه الوقت الطويل دون أن ينفقه في قراءة منتجة أو تجارة مثمرة أو صناعة رابحة، بل يكفر بموهبته كفرانًا يجعلها ضائعة الأثر في قومه، فكأنه تجرد منها تجردًا يلحقه بالسُّذَّج الغافلين، وهؤلاء معذورون إذا ضاع الوقت لديهم هباء، ولكن ما عذره هو؟

وإنك لترى عجبًا في الحياة، إذ تشاهد من معارفك رجلاً محدود الذكاء، متوسط الموهبة، ولكنه يشحذ عزيمته ويستجمع قوته، في عمل دائب متأصل، فلا يكاد يستسلم للراحة إلا قدر ما يهدأ باله، ويستجمع نشاطه حتى إذا أخذ قسطه من الجمام هب إلى عمله مثابرًا دءوبًا، ويمضي الوقت فإذا إنتاجه المتصل -على قدرته المتوسطة- يرفع من قدره، وإذا ذكره بالخير يشيع في قومه، وإذا مكانته فوق مكانة من يفوقونه ذكاء وبصيرة، وتبحث عن السر في ذلك فتراه كسب الوقت فيما يفيد، وترك الدعة المتطاولة في غير عمل؛ لأن الحياة لا تعطي -في الأعم الأغلب- غير من يواصل السبح الدائب في الخضم الهائج حتى يصل إلى المرفأِ البعيد، مستجمعًا عزيمته الغالية، مستصرخًا صبره المديد.

يقول الناس كثيرًا: إن الوقت من ذهب، وهو قول راشد أوجزته جملة صغيرة كادت تفقد مدلولها لدى كثير من الناس، إذ لم تعد تلهب عزيمة، أو تشحذ همة؛ لأن اشتهارها الذائع قد أخمد أثرها في النفوس، وكان تكرارها المتواصل على ألسنة الناصحين من الآباء والمتعلمين جعلها لا تقدم شيئًا ذا بال،

وكأنَّ من جراء ذلك أن ساد الكسل جماعات كثيرة يرجى منها الخير إذا نشطت للعمل، ونفضت عنها غبار الدعة والاسترخاء.

وإذا كانت إضاعةُ الوقت مذمةً تلحق الكسالى جميعًا دون استثناء، فإنها بين أهل الثقافة والعلم أشد معابة، وأفدح خطرًا، فإذا جاز لك أن تؤنب العامل الكسول، أو التاجر الخامل، أو الزارع المتواكل، حين يتراخون عن أداء عملهم الملزم فإن المثقف المستنير أشد استحقاقًا للملامة والتثريب إذا اجترَّ وقتَه الطويل اجترارًا فيما لا غناء فيه.. وأنا أعرفُ من أساتذة الجامعة دون أن أسمي أحدًا -فالحديث موضوعي لا ذاتي- من قضى أكثر من عشرين عامًا يدرس مادة معينة لفرقة واحدة ذات منهج لم يمسَّه تعديلٌ على توالي السنين، وقد قضى هذه السنين العشرين يُملي مذكرة واحدة هي كل حصاده التأليفي في دنياه، وهي بعدُ لا تجمع غير المشترك المعلوم من القضايا المشتهرة في مادته، حتى ليُغنِي عنها أي كتاب يؤلفه غير أستاذ متخصص، فأي فراغ قاحل يعيشه أمثال هؤلاء؟ ولعمري كيف يجوز في منطق العقل أن يقضي الإنسان المثقف وهو في مستوى الأستاذية الجامعية سبعين عامًا من حياته ثم يعبرها إلى الراحة الدائمة دون أثر واضح، وكأنه عاش سبعين يومًا، لا سبعين عامًا!

وقد تقول لي: إن التأليف العلمي وحده ليس كل شيء في حياة العالم والأستاذ، فهناك من يؤلفون الرجال لا الكتب، مثل: جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي وأمثالهما، وأنا

لا أخالفـك في شــيء مما أقول، ولكني أجــزم أن من يرتضي أن يكــرر مذكرة واحدة طيلة حياته الجامعية لا يســتطيع أن يكوِّن طالبًا ممتازًا يخلق فيه عزيمة واثبة وطموحًا مشرئبًا واستشرافًا إلى آفاق التجديد؛ إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه.

أترك ذلك منتقلًا إلى جهة مقابلة، فقد فهم قوم آخرون، يقفون من الفريق الأول موقف النقيض. إن الانتفاع بالوقت في مضمار التأليـف العلمي هو الإكثار من الحشــد المتصل في كل مادة أو فــرع دون مراعاة للتخصــص، فلا يكاد يمر العــام الواحد حتى ترى للمؤلف منهم ثلاثة كتب أو أربعة وتقرؤها جميعًا فلا تجدُ إضافةً جديدةً، وهذا شيء طبيعي؛ لأن البحث الأدبي أو التأليف العلمــي عملٌ وعرٌ شــاقٌ لا يُعطي ثمــاره دون أن ينقضي الزمن الطبيعي لغرس البذرة، وموالاة الأرض الطيبة بالري والتسميد، ومواصلة التعرض للحرارة، والهواء حتى تنمو الســيقان وتمتد الفروع، وتكتســي الأغصان، فإذا لم تنقضِ المدة الطبيعية فلا ثمرة على الإطلاق!

وقد كنتُ أناقش من يفعلون ذلك فأحتج بأن الطبري -رحمه الله- كمــا روى الذهبــي في تذكرة الحفاظ- قــد قال لأصحابه: هل تنشــطون لتاريخ العالم! فقالوا: كم يجيء؟ فذكر نحوًا من ثلاثيــن ألــف ورقة، فقالوا: هــذا مما تفنى الأعمــارُ قبل تمامه. فقــال: إنا لله، ماتت الهمــم، فأملاه في نحو ثلاثــة آلاف ورقة! وحيــن أراد -رحمــه الله- أن يكتــب التفســير قــال لهــم ذلــك فاســتهولوا الأمــر، فكتب التفســيرَ في نحو ما كتــب التاريخَ!

قالوا: لو حُسِبتْ أيامُ ابن جرير الطبري التي قضاها في حياته ثم قسمت على عدد الصفحات التي كتبها في فروع العلم لصار لكل يوم أربع عشرة ورقة!

هكذا كان الطبري في عصره، وهكذا يتترس به من يجمعون دون تجديد، وللطبري زملاء صنعوا صنعه، وأكثروا إكثاره، ولكنَّ الذين يتخذونهم مثلًا لشغل الوقت في الجمع والتسويد، يغفلون عن شيء مهم عجبتُ لهم كيف يغفلونه، وهو أن مفهوم التأليف في عصور السابقين غير مفهومه في هذا العصر، فقد كان المؤلفُ الموسوعي من هؤلاء يعمد إلى الروايات المختلفة، والأقوال المتعارضة دون ترجيح في أكثر الأحيان، وفي هذه الروايات المسطورة ما يجزم العقلُ بخطئه بداهة دون فحص؛ لأن منهج التأليف إذ ذاك كان لا يخرج عن المدلول اللغوي الأول لكلمة التأليف، فهو جمع وتتبع واستقصاء، حتى لتقرأ في الحادثة الواحدة بضع روايات مختلفة يلطم بعضُها بعضًا، وهي بذلك تقدم مادة البحث العلمي لمن يريد أن يكتب الآن، فكأن مفهوم الأمانة العلمية لدى السابقين قد دفعهم إلى تسطير شتى الروايات، وقد ينصُّون على فساد بعض ما يخطون، ولكن ذلك ليس عامًا فيما يجمعون!

هذه الطريقة الجامعة قد خدمتْ التراث التاريخي حين قدمتْ كل ما يُروى ويقال، وحينما أَسندتْ كل خبرٍ لراويه ضعيفًا كان أو قويًا، ولكنها مرحلة قد انتهت منذ زمنٍ بعيد لتخلفها مرحلةُ الموازنة والترجيح والبحث عن العلل والأسباب، ولو أن

ابن خلدون قد وجد صداه القوي في عصره لأنشأ مدرسةً تكتب العلــم على نمط جديد ولكنه قــد تقدم زمانه بقرون، فلم يقدره حق قدره سوى أعلامنا المعاصرين.

فالاحتجاج بالإمام الطبري وأمثاله يُغفِل فارقَ الزمن والهدف واختــلاف النظر، بل يتجاهل المفهوم المعاصر للبحث العلمي تجاهلًا لا ندري متى نقضي عليه، والانتفاع بالوقت على وجهه الصائــب لا يكــون إلا بالعمــل المثمر الجاد ولا يكــون بالنظر الكمي وحــده دون تقدير للكيف، وفي اعتقــادي أن من يؤلف كتابًــا واحدًا يتضمن الجديد المســتنبط -خطأ كان أو صوابًا- أفضل ممن يردد آراء السابقين في عشرة كتب مختلفة الأسماء! وأضــربُ المثل لذلك بكتــاب «إحياء النحو» للأســتاذ إبراهيم مصطفى -رحمــه الله- فقد خط منهجًا ودعــا إلى طريقته، وقد يكــون الرجلُ مســبوقًا دون أن يَعلم بمــن وافقه في منحاه، وقد يكــون الرجل قــد أخطأ عدة أخطــاء قام بتصحيحهــا عالِمٌ آخرُ فــي كتاب مخلص ينقد «إحيــاء النحو» نقــدًا موضوعيًا لا غبار عليــه بحــال، وقد يكون ذلــك كله ولكننا لا ننكــر أن الكتاب وليد جهد مبتكر، وأســاس حركة نقدية مثمرة، وهو ليس كتابًا تقليديًا يُملِيه مؤلفه أو يقرره عشرين عامًا على تلاميذه دون أن يكــون من فصوله ما يدل على جدة الاســتنباط، وقوة التخريج، ووضوح المفهوم.

لقــد تقدَّم الغــربُ اليومَ على الشــرق في أكثر فنــون الحياة العلمية، وإن تقدمه الصناعي وازدهاره الحضاري وتفوقه العلمي

لَحقيقـةٌ واقعةٌ لا يمتري فيها أحد وهي في لُبابها الأصيل ترجع إلى الانتفـاع بالوقت وتهيئة الدوافع إلـى الإِنتاج المثمر ، على حين يرجع خمول الشـرق في أكثر بلاده المتسـعة إلى الإِفراط في الكسـل والركون إلى البطالة ، وقد يكون الاستعمار الغربي أحد الأسـباب المهيئة لهذا الخمول المظلم بما ثبط من همم ، وأوصـد من أبواب ، واضطهد من رجال ، ولكن العزيمة الصادقة تقاوم الصعاب وترتفع عليها ؛ لأن الحياة عقيدة وجهاد .

ومن العجيب أن يُخلِد إلى التكاسـل نفرٌ يشـيع فيهم المثل القائل «الوقت كالسـيف إن لم تقطعه قطعك» ودينهم من فوق ذلـك كلـه ينادي كل إنسـان أن يعمل لدنياه كأنـه يعيش أبدًا ، وأن يعمـل لآخرتـه كأنه يموت غدًا ، وتاريخهم السـالف ينطق بالحركة المثمرة والسعي في جنبات الأرض حتى استطاعوا في ثمانين عامًا أن يعمروا من المساحة الكونية ما لم تعمره الدولة الرومانية في ثمانية قرون فنشـروا لواء الحضارة في زمن سادت فيه الهمجية ، وهي سـابقة تاريخية تـؤذن بأخرى مثيلة لها ، إذا صدقتْ الهممُ وطَرح الخاملون عنهم رداء الكسل المميت .

وإذا كان لـكل عمـل خطـرُه المتوقَّـع وانحـرافُ فهمه عن الجادة ، فقد فهم بعض الناس أن الدعوة إلى كسب الوقت تَعني عـدم الراحة ومواصلة الكدح دون اطمئنـان وهذا فهم ضرير لا يتجه إلى النظر السـديد ؛ لأن الراحة المنشـطة والفراغ المريح ضـرورة ملزمة للعمل الجاد ، ولكننا نعـرف أن المنبتَّ لا أرضًا قطـع ولا ظهـرًا أبقـى ، وقد كنتُ أحسـب أن هذه المسـألة من

الوضوح بحيث لا تناقَش، ولكنني رأيتُ نفرًا من الكاتبين عن استثمار الوقت يستدلون على وجهتهم بما لا يصلح أن يُستدل به، فقد قرأتُ بحثًا رصينًا في هذا الموضوع أوفاه كاتبُه الفاضلُ حقَّه من وجهة نظره وأخذ في الاستدلال على مذهبه بما يصلح أن يكون موضوعًا للنقاش فهو ينقل مثلًا قول الإمام أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي عن نفسه: «وأنا أقصّر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سف الكعك، وتحسِّيَه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفرًا على مطالعةٍ أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدركها فيه»، وإن أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاءِ -بإجماعِ العلماء- هو الوقتُ، فهو غنيمة تُنتَهز فيها الفرصُ، فالتكاليف كثيرة.. كما يُنقَل أن عامر بن عبد قيس أحد التابعين وقف أمامه رجل ليكلمه فأعرض عنه وقال له: أمسكْ الشمس بمعنى أن الزمن متحرك وأن الشمس دائرة لا تقف فكيف أنتظر حتى أحدثك؟!

هذان القولان معترَض عليهما، لا يُتَّخذان حجةً للإقناع، فابن عقيل رحمه الله -على إمامته وجلال قدره- لا يصح أن يقتدي به أحدٌ حين يسف الكعك ويخلطه بالماء ليوفر وقت المضغ، ويفرغ للمطالعة؛ لأن نوع الغذاء المفيد وطريقة تناوله، وكسب الراحة الكافية للهضم الصحي، كل ذلك ضرورة لا يصح بدونها الجسم، ومن يتعجل البلعَ والهضم ويذللهما بالماء لينشط إلى القراءة والكتابة دون راحةٍ ما، فقد أسرع بعطب معدته! ولن يفعل ذلك إنسان بصير عاش أكثر من ثمانين عامًا كابن عقيل

رحمه الله إلا استثناءً في بعض المرات على سبيل الضرورة، أمَّا أن يكون قوله سننًا يحتذى، فليس مما نراه.

أما عامر بن عبد قيس، فلا يُعقَل أن يعترضه إنسانٌ ليخاطبه فيُعرِض عنه، ويقول له أمسك الشمس، إلا إذا كان يرى بتجربته أن محدثه ثرثارٌ لَجوج خاطبه كثيرًا في غير طائل حتى ضاق، وقال له في تبرم: «أمسك الشمس»، أمَّا أن يكونَ هذا دأبَه الدائمَ فإن الخُلُق الإسلاميَّ يحول دون هذا الرفض الجارح؛ لأن لكل إنسان حريتَه الدافعة إلى المجاملة والبشاشة وحُسن اللقاء! وهذا ما لا يجهله تابعيٌّ زاهدٌ مثل عامر بن عبد قيس.

ولعلنا بعد ذلك نقدر قيمة الوقت الصحيحة المعتدلة، فلا نقع في إفراط أو تفريط.

وجادلهم بالتي هي أحسن:

من المشاهَد لدينا في المعارك العلمية أن أكثرها لا يكاد يصل بالقارئ إلى رأي حاسم، فقد يدور الخلافُ بين طائفة من العلماء حول مسألة علمية دقيقة، فتدور الرحى شهورًا تبلغ العام في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية، ثم تجمع البحوث في كتب، وتطبع الكتب عدة مرات، وتصبح آراء الفريقين معلومة مشتهرة، لا تحتاج بعدَ هذا المدى المتطاول إلى من يثير الحربَ خدعةً في موضوع الخلاف، وإذ ذاك تهدأ العاصفة هدوءًا يظن صاحب العقل المتزن أن لا ضجة بعده ولا ضوضاء، فقد وضحت الأدلة، وعلى القارئ المدرك أن ينحاز إلى أي فريق يراه أكثر صوابًا من سواه.

ولكنك تُفاجَأ بعد حقبة يسيرة باشتداد النزاع حول الموضوع نفسه على أيدى أناس آخرين، وكلّ فريق يُعِيد ما سبق من الأدلة والبراهين، وكأنَّ المسألة طريفةٌ لم تكن مجال النزاع ذات يوم، والعجيب أن المعركة الثانية لا تضيف جديدًا في النظر العلمي إلى ما تمخضت عنه المعركة الأولى، بل أعادتْ ما كان كما كان مع اختلاف الأسماء التي تتحدث فقط، وظهور أصحابها بمظهر ذوي الجدل الصائب، والاطلاع المتبحّر، ولن أُكثِر من الشواهد على هذا اللجاج، ولكني أقتصر على مثال واحد، تُقاس عليه عشراتُ الأمثلة ليكون في ذلك عظةٌ للمعتبرين.

عندما قدم المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي -رحمه الله- مشروعه الخاص بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية قامت معارك حامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين، على صفحات الأهرام وكوكب الشرق والبلاغ والمقطم، ثم مجلة الأزهر التي لم تكتفِ ببحوث العلماء، بل أصدر رئيس تحريرها العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي -رحمه الله- كتابًا خاصًا بالموضوع، وزَّعه على المشتركين بالمجلة كنقدٍ علميٍّ عامٍّ لما قيل، ثم جُمعت هذه البحوث في كتب خاصة تحمل أسماء الأساتذة محمد مصطفى المراغي، ومحمد سليمان، ومحمد مصطفى الشاطر، وعبد الرحمن الجزيري إلى مقالات طويلة لمحمود شلتوت، والحجوي المغربي، والخضر حسين، ومحب الدين الخطيب، ومن لا أستطيع أن أتذكره لبُعد الزمن، وانقطاع المراجع، وهدأتْ العاصفةُ بعد

أن عُرفت وجهةٌ من يقولون بترجمة المعاني، ومن لا يقولون بالترجمة إطلاقًا.

وقد ظننتُ أن المسألة أصبحتْ من الوضوح بحيث لا تكون مدعاة جدل مستأنف ولكننا بعد سنوات نجد المسألة تناقش لا لتذكر بما كان فيرجع الناس إلى ما دُوِّن في القديم، بل لتعيد النقاش مكررًا مردَّدًا، وكأن المسألة من الجدة والطرافة بحيث تطلب الفحص والنقاش! والطريف في المعركة الثانية -من وجهة نظري الخاصة- أنَّ أصحابها ناقلون مرددون، وقد تحاشَوا ذكر السابقين؛ ليظن غير المطلع أنهم يأتون بالجديد.. وهم ناقلون! ما سِرُّ هذه الظاهرة العجيبة في دنيا العلم والأدب؟

وما سر الوقوف موقف المعارض المتناحر، وفي المستطاع لو خلصتْ الضمائرُ وصفتْ الطبائعُ أن يَلتقي المتنازعان في وسط الطريق، وكيف نستطيع أن نتخلّى عن معوقات البحث العلمي بما يساعد على تجلية الحق، وانحسام النقاش في حيز معقول ووقت قريب! إن السبب الأصيل لاتساع الشقة بين المتجادلين -وأكثرهم من كبار العلماء- هو التماس وجوه الخلاف في كل لفظ يحتمل الخلاف، ولو على سبيل التأويل من طرف بعيد، مع إغفال وجوه الاتفاق في كل فكرة تدعو إلى التقارب مهما ظهرت محجتها الواضحة؛ إذ إن بعض الناس يعدون التراجع انهزامًا، فهم ينقلون المسألة من الموضوعية الواسعة إلى الذاتية الضيقة، ومتى اعتقد المجادل أن الأمر في المسألة يتعلق بذاته لا بموضوعه، فقد تعذَّر الوفاق، وانفرجت مسافة الخلاف.

هو إذن داءٌ قديمٌ قد أعضل، وإننا لنقرأ عنه في كتب السابقين ما يُدهِش ويروع فوق ما نشهد الآن في نقاش المحدثين مما يؤلم ويسيء، وإذا أردتَ اعترافًا حقيقيًا يدل على ذلك التطاحن الشخصي، فاستمع إلى أبي حيان التوحيدي إذ يقول: «سمعتُ الشيخَ أبا حامد الأسفراييني يقول لطاهر العباداني: لا تعلق كثيرًا لما تسمع مني في مجالس الجدل، فإن الكلام يجري فيها على ختل الخصم، ومغالطته ودفعه ومغالبته...

هذا اعتراف من إمام كبير، هو رأسُ الشافعية في عصره، وهو يدل على شجاعة نادرة حيث انتصر صاحبُه على نفسه في ساعة من ساعات الإخلاص النزيه، فقال: إن نقاشه في مجالس المناظرة لا يهدف إلى تجلية الحقائق، قدر ما يهدف إلى مراوغة الخصم ومغالبته، كأنَّ المسألة ليستْ مسألةَ حقائقَ مدعمة بالأسانيد، ولكنها حومة من حومات المصارعة بين أبطالٍ دُرِّبوا على الملاكمة البدنية ليقول كل واحد منهم: أنا هاهنا أتصدَّر الميدانَ! ثم تزيد عظمة الرجل حين يصرح أنه لا يتكلم لوجه الله خالصًا، ولو أراد ذلك لكان خطوُه إلى الصمت أسرعَ من تطاوله إلى الكلام، ومعنى ذلك أن وجوه الاتفاق تتقارب وفي الاستطاعة كل الاستطاعة أن يصل إليها المتناقشان من أقرب وقت لو صفَتْ السرائرُ وخلصتْ الضمائرُ، ولكن الذاتية تتغلبُ فتعصف بكل تقارب نزيه!

على أن كلام الشيخ أبي حامد الإسفراييني لم ينتهِ دون تعقيب، بل وجد من علماء الأمة من يعتذر عنه ويتلمس الحجج

الزائفـة للجاج الطويـل والخصام المغـرض ؛ إذ نجد تاج الدين السـبكي ينقل كلام أبي حامد بنصه ليعقب على قوله السـابق : «فإننا مع ذلك نطمع في فضل الله وسعة رحمته» بما نصه : «هو طمع قريـب فإنَّ ما يقع من المغالطـات والمغالبات في مجلس النظر يحصل به من تعليم إقامة الحجة ونشر العلم وبعث الهمم علـى طلبه ما يعظم في نظر أهل الحـق وتقلّ عنده قلة الخلوص وتعـود بركة فائدتها وانتشـارها على عـدم الخلوص فقرب من الإخلاص إن شاء الله» .

والـذي يقرن تعقيب السـبكي باعتـراف أبـي حامد يعجب عجبًـا زائدًا من اختـلاف وجهتي الرجلين فقد أحسـن أبو حامد كل الإحسان حين انتصر على نفسه فجهر بأن كلامه في مجالس النقاش يجري على ختل الخصم وحده وحُبّ الانتصار عليه دون تقيد بالحقائق ، كما أحسن حين اعترف بأنَّ الصمت عند وضوح الحقائق أجدرُ وأولى من لجاج مغرض يفضي إلى غضب الله وهو اعتـراف أميـن من نفس لوامـة عليها أن تغلو فـي اللجاج ولوعًا بالانتصـار الزائف في حلقات الجدال ، ومـا يقدر على التصريح بذلك غيرُ عالم قويٍّ يجد أن الحق أقوى من أن يُكتَم .

أما تاج الدينِ السبكي فقد جانب الصواب حين أخذ يتحمل الأعذار لمن يغالط في سـاحات الجـدل ويثير الغبار على وجوه الحقائق زاعمًا أن هذا اللجاج المتطاول يعلِّم الناسَ إقامةَ الحجة ومرونـةَ اللسـان وتيقـظَ الانتباه ، كمـا يبعث على نشـر العلم ويبعث الهمة في طلبه !

ومَثَل السبكي في وجهة نظره تلك مَثَلُ من يُمرِض الجسومَ بأدوائها المضنية -والقاتلة أحيانًا- ليبحث لها عن علاج يَقيها الداءَ، وكان في الوقاية من هذه الأمراض المستعصيةِ العلاج، ما يصرف البحثَ إلى وجهة أخرى تنفع ولا تضر وتصح ولاَ تُعِلّ ولكنه التمحل البعيد والشطط الجموح.

ولا نزعم أن المتجادلين في المسائل العلمية كلهم ينحون المنحى الشخصي في حب التغلب وإرادة التفوق فنحن نعرف عن كبار الأئمة من حب الحق والبحث عنه من شتى الوجوه ما لا ينكره عنيد ملحاح وإن أحدهم ليعترف على رءوس الأشهاد بأنَّ كلامه في رأيه الشخصي صواب يحتمل الخطأ وكلام مجادله في رأيه الشخصي كذلك خطأ يحتمل الصواب، وقد سرتْ قولةُ الإمام مالك بين المنصفين من العلماء سريان الضوء اللامع إذ أعلن أن كل عالِم يؤخذ منه ويردّ ما عدا صاحب هذه الحجرة، مشيرًا إلى مثوى رسول الله ﷺ بالحرم المدني حيث كان الإمام مالك -رحمه الله- يتصدر للتدريس وهو شعور إنساني يدل على الإنصاف والثناء على صاحب الحق أيًا كان منحاه، ثم هو إحساس نبيل عبَّر عنه الشاعرُ العربيُّ أطيبَ تعبير حين قال:

على أنني أطري الحسام إذا مضى
وإن كان يوم الروع غيري حامله
وآسى على جيحون إن قل ماؤه
وإن كان ذودًا غير ذودي ناهله

وإذا كان من الفقهاء من يخشعون للحق فيتبعونه في ساحات

النقــاش ومن تضيق صدورهم بالإِنصــاف فيخوضون في اللجاج فــإن غيــر الفقهاء كذلك مــن الأدباء والمؤرخيــن وعلماء اللغة واللســان ففي تواريخهم المدونة في كتب الطبقات ما ينبئ عن وجود المعتدل أو المتطرف وما اشتهر عن مناظرات الخوارزمي مع الهمذاني والكســائي مع ســيبويه والمتنبــي مع الحاتمي إلا مثــال للتطاول الذي لا يقصد مقصد الحق، كما كان ما اشــتهر مــن مطارحات الليث بن ســعد مع مالك بن أنس والشــافعي مع محمد بن الحســن إلا مثــالاً للجدل الهــادف والبحث المتزن.

وســنُلِمّ بمثاليــن يدل أحدهما على الشــطط الجامــح وثانيهما علــى الإِنصــاف الحميــد ليعرف مــن لم يعــرف أن الأيــام تمرّ بالنقــاش الملتحــم ويبقى الحكــم عليه مدونًا مقــروءًا فيذهب المحســن بإِحســانه ويهوِي المســيء إلى حيث لا يظفر بعطف قارئ مستنير.

أما المثال الطيب فهو ما رُوي عن أبي بكر الأنباري إذ حدث عنــه أبــو الحســن الدارقطني فقــال: حضرتُ أبا بكــر الأنباري -رحمه اللّٰه- في مجلس إملائه يوم الجمعة، فصحّف اسما أورده في إســناد حديث أيًا كان -شــك من الراوي أبي الحسن- حيان باليــاء فقال الأنباري حبان بالباء أو بالعكس، قال أبو الحســن: فأعظمــتُ أن ينقل عن أبي بكر فــي فضله وعلمه وجلاله وَهمٌ، وهِبْــتُ أن أوقفــه على ذلك، فلمَّــا انقضى الإِمــلاءُ تقدمتُ إلى المستملي وذكرتُ ما دار بخاطري وعرَّفتُه صوابَ القول لينقله إلى أبي بكر ثم حضرتُ الجمعة الثانية فســمعتُ أبا بكر ينادي

تلميذَه المستملي ويقول له بصوت يسمعه جميع الطلاب في حلقة الدرس: «عرف الجماعةُ أنَّا صحفنا الاسمَ الفلاني حين أملينا الحديث في الجمعة الماضية ونبهنا فلانٌ -وأشار إليَّ- إلى الصواب وقد رجعْنا إلى ما نثق من المصادر فوجدنا الشابَّ على حق فيما قال!» فإذا تركْنا أبا بكر الأنباري إلى العالِم اللغوي المعروف بابن الأعرابي فإننا ننقل عنه هذا الخبر: قال محمد بن عمر الجرجاني: صحَّف ابنُ الأعرابي في شعر الكميت وأنا حاضر فأنشد:

فبانوا من بني أسد عليهم
نجار من خزيمة ذي القبول

فقرأها بالنون في بانوا وهي باتوا بالتاء فقلتُ له: إنما هي باتوا فلوَى شدقه فقلت: إن بعد هذا البيت يقول الكميت:

وقالوا بالأيامن منتماهم
فيا بعد المبيت من المقيل

فقال: لا يُلتَفت إلى هذا.

وبمقارنة موقف أبي بكر الأنباري بابن الأعرابي نجد الإنصاف المتواضع عند الأول والشطط المعتسف عند الثاني لأن قول الشاعر «وقالوا» في البيت الثاني من القيلولة فيدل على أن قوله في البيت الأول «فباتوا» من البيات لا من البين وهو دليل لا يدفع وها قد مضى الزمن المتطاول على المشهدين المختلفين ولكننا نسجل للمنصف إنصافه ونتخذه موضعًا للأسوة ونحصي على المشتط جموحه ونراه موضع نقد لا

تُحمَد معه أسوةٌ واقتداءٌ.

هــذا، وموضع النقاش في الموقفين المتباعدين لا يخرج عن لفظ في حديث أو كلمة في بيت فكيف به إذا كان موضوعًا بعيد المرمى، مشتبه المســلك، متعدد الأطراف كموضوع الترجمة لمعانــي القــرآن أو مــا يقاربــه من مبهمــات الرأي وملتبســات التخريج.

إن الجدال بالتي هي أحســن واجب محتــوم، وما نظن كلمة موجزة كهــذه الكلمة تفيه حقَّه من التجليــة والتوضيح ولكننا نرجئ البقية إلى حين.

بين الحلم والتحلم:

نحتاج في مواقفنا الكثيرة إلى ضبط النفس وشــدة التماسك ويســر التناول وتلك عناصر تندرج فيما يعرف لدى الأخلاقيين بالحلم وهو ســيد الأخــلاق جميعًا؛ لأنه يضم فضائل كثيرة من شــمائل النفس الزكية، فالحليم كاظمٌ غيظَــه وعافٍ عن الناس عند مقدرته وهو يقابل الســيئة بالحسنة دفعًا بالتي هي أحسن، وتطبيقُ ذلك كله لا يتيسر إلا للأفذاذ.

ونحن نعلم أن الخلق الإنســاني يتنوع إلى خلق فطري ينشــأ مــع الإنســان فــي جبلته وخلــق مكتســب يتمــرن صاحبه على تحصيلــه باذلًا كل جهده حتــى يمتلك زمامه ويصبح كأنه عادة متأصلــة فيه؛ إذ إن الأخــلاق الراقية تحتاج إلى علاج كبير حتى يســتقيم منهجها ســلوكًا وعمــلًا وقولًا، وكم من شــرير هائج الطبع، فاســد المنحــى، أتيح له من ذوي الأخــلاق الفاضلة مَن

بَذلَ جهدَ الصابرين في هدايته وتقويمه حتى اســتطاع أن يسير به على النهج القويم ! وكم من شــابٍّ بريء نشأ في بيئة صالحة وورث عن آبائه عناصر الاستقامة وبواعث الخير ثم اختلط ببيئة فاسدة يسودها الانحلال الخلقي فارتكس معها إلى الحضيض !

نقول ذلك ردًا على فلاســفة في الشرق والغرب يذهبون إلى أن الخُلُق موهوب لا مكتسب وأن الفاسد فاسد بجبلته والصالح صالــح بعنصره وذلك مذهب يلقي اليأس في نفوس المصلحين ويــرد عليه الإمــام الغزالي بقولــه : «لو كانت الأخــلاق لا تقبل التغير لبطلت المواعظ والوصايا والتأديبات ولما قال رسول الله ﷺ : «حســنوا أخلاقكم» ، وكيــف ينكر هذا في حق الآدمي مع أن تغيير خُلُق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنــس والكلب من شــره الأكل إلى الإمســاك والقناعة والفرس الجموح من الهياج إلى الســلامة والانقياد ، وكل ذلك تغيير في الأخلاق ، والمســألة من الوضوح المشــاهد بين الناس بحيث لا تحتمل اللجاج» .

وإذا كان الحِلــم ســيدَ الأخــلاق فطريقــه لدى من لــم يُرزَقه كموهبةٍ أن يتحلم بمعنى أن الإنســان إذا قوبل بالشــر فعليه أن يضبط نفســه الثائرة المهتاجة فلا يســتجيب لبوادر الشر بادئ ذي بــدء فإذا تكرر ذلك منه انتقل من مرحلة التحلم إلى مرحلة الحلم بحيثٍ لا يحتاج إلى عناء في ضبط نفســه إذ يصير حلمه الوداع ضابطًا دون الهياج ؛ ومن هنا كان كظم الغيظ أول ضوابط النفــس الهادئة وهو علامة الرســوخ الخلقــي ؛ لأن صاحب هذا

الضبط قد سيطر على انفعال حاد يصطخب في أعماقه وبذل جهد الجبابرة في إنهاء صراع عنيف يدفعه إلى الشر وتلك صفة المسارعين إلى رضوان الله حيث يقول في شأنهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤)

ولعل الشاعر العربي قد صوَّر بعض ألوان الصراع حين قال:

لقد أسمعُ القولَ الذي كاد كلما
تذكر فيه النفس قلبي يصدع
فأبدي لمن أبداه مني بشاشة
كأني مسرور بما منه أسمع
وما ذاك من عجبي به غير أنني
أرى أن ترك الشر للشر أقطع

فأيُّ تعالٍ هذا الذي يجعل قلب صاحبه يتصدع إذا ذكر بواعثه فضلًا عن معاناة تجربته أثناء وقوعه؟ وأي انتصار صادف من استطاع أن يُبدي البشاشة كأنه مسرور وهو ملتهب من الغيظ! لا شك أن صاحب هذا الانتصار قد رُزق نصيبًا هائلًا من ضبط النفس ليقطع الشر بالإمساك عن الشر وهو سبيل الحلماء!

وإذا كنا نريد أن نفرق بين الحلم والتحلم من واقع علمي سجلته صحف التاريخ والسير فإن أول من تتخذه مثلًا لصاحب الحلم المتأصل عن فطرة جبله الله عليها هو محمد ﷺ إذ إن خلقه الكريم قد صِيغ مطبوعًا على مقومات الكمال الإنساني،

وهو حين يأتـي جميلَ الخصال إنما يصدر عن طبيعة نبيلة كما يصدر ضوء الشـمس عن الشـمس والأريج عن الزهر دون عناء تتخذ له الأسباب بمشقة واحتيال.

جاء أعرابي إلى حضرته ﷺ بالمسجد يطلب منه شيئًا فأعطاه ما تيسـر في يده ثم قال له في هدوء: أأحسنتُ إليك يا أعرابي؟ فـردَّ الرجـل مندفعًا: لا ولا أجملتَ، وهـو رد أحمق لا يواجَه به صاحب عطاء، فغضب المسلمون وهموا به ولكن الرسول أشار إليهم في ابتسـام فهـدءوا، ثم اتجه إلى منزله الشـريف ونادى الأعرابي في تلطف وابتسام فأعطاه وأعطاه ثم قال له: أأحسنت إليك؟ فقال الأعرابي مبتهجًا: نعم وجزاك الله من أهل وعشـيرة خيرًا، فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شـيء من ذلـك، فإذا أحببت فقل بين أيديهـم ما قلت بين يدي حتـى يذهب من صدورهم ما فيها عليـك. قال: نعم، فلما كان الغداة جاء الأعرابي إلى مسجد رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه، فقـال ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، وتوجه إلـى الأعرابي بالنظر، فقال الأعرابـي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشـيرة خيرًا، فقال ﷺ: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فتبعها الناس فلم يزدها إلا نفـورًا، فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بهـا وأعلم، فتوجه صاحب الناقة بيـن يديها وأخذ لها من قمام الأرض، فردهـا هونًا هونًا حتى جاءت فاسـتناخت وشـد عليها رحلها، واسـتوى عليها، ولو أني تركتكـم حيث قال الرجل ما

قال فقتلتموه دخل النار.

هذا الحادث اليسير له أكثر من دلالة خلقية في سياسة رسول الله ﷺ ، فقد أعطى الرجل ما يراه كافيًا لمثله، وللرسول ﷺ تقديره الصائب فيما يراه، فما كان ليحرم الأعرابي شيئًا يراه محتاجًا إليه، ومن الطبيعي أن ينتظر منه الرضا بعد أن أعطاه ما تصور أنه يكفيه، ولكن نفس الأعرابي لم تقنع، وكانت فيه صراحة متجرئة، وحدة غير محمودة، فأجاب الأعرابي إجابة رعناء لا تصدر عن عاقل أعطى ولو كان الرسول كسائر الناس لغضب واحتد حين رأى إحسانه يقابَل بالعقوق، وقد ثار أصحابه -رضوان الله عليهم- وكادوا يسيئون لمن تقدم بالإساءة لنبيهم الكريم، ولكن الرسول ﷺ نهاهم، فكفوا، ثم دخل منزله ، ودعا الأعرابي، فأعطاه مرة ثانية!

وهذا مضرب المثل في الحلم الأصيل؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكتفِ بالعفو عمن أساء في تهور، بل استرضاه وأكرمه بعطاء آخر، ثم سأله، أأحسنتُ إليك؟ فأجابه بالرضا والدعاء، وهنا أراد رسول الله ﷺ أن يحمي الرجل من صحابته حين يقابله أحدهم فيتذكر مجابهته للرسول فينال منه، فقال للأعرابي: إنك قلتَ ما قلتَ أمام أصحابي، وأشار عليه أن يحضر مجلسهم في الغد، وما كان من هدفه ﷺ أن يعلن لأصحابه أنه أعطى الأعرابي حتى رضي، ولكنه أراد أن يقدم أنموذجًا عمليًا للسيئة تقابَل بالحسنة، وللتهور يكافأ بالحلم والأناة، وقد حضر الرجلُ من غده ليعترف بما كان، وهنا قام المربي

الكبير بإرشاده السديد لأصحابه، فضرب المثلَ بالناقة الشاردة ومن تجمَّع حولها من الناس يحاولون ردها فلا يستطيعون حتى ترضَّاها صاحبها بما جمع لها من خشاش الأرض، فاستناخت وأسلمت القياد، وكل ذلك صدر من الرسول عن طبع يفيض بالحلم لم يتكلفه تكلفًا، ولم يصلْ إليه عن طريق التحلُّم، بل فاضَ من شعوره نبلًا من نفس تأتلق بالفضائل كما تأتلق السماءُ بصفحة البدر، وهو ﷺ يعلم من أسرار النفوس ما يجهل سواه، فيقابل كل تصرف بما يليق.

وفَد أشجُّ عبد القيس على رسول الله ﷺ، فأناخ راحلتَه في أدب وهدوء، ثم عقلها مستوثقًا من رباطها، وبادر إلى رحله فانتزع أثوابَ السفر ليرتدي حلتين جميلتين، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ، وقد رأى ما صنع، فاستقبله ﷺ ببشر، وقال له: يا أشج -وهذا ما كان ينادَى به- إنَّ فيك خُلُقين يحبهما الله ورسوله، فقال الأشجُّ: وما هما، فداك أمي وأبي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هما الحلم والأناة، فقال الأشجُّ: أهما خُلُقان تخلَّقْتُهُما أم خلقان جَبَلني الله عليهما؟ فقال الرسول ﷺ: بل خلقان، جبلك الله عليهما. فابتسم الأشج وقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

وواضح من هذا الحوار الرقيق أن رسول الله ﷺ كان يدرك الفرق بين الخلق والتخلق، وهذا غير مستغرَب منه، ولكنَّ الجميل الرائع أن يدرك ذلك الفرقَ رجلٌ فطريٌّ لم يتلقَّ دروس الأخلاق في معهد دراسي، وهو الأشج، ولا يأتي ذلك إلا من

ممارســة طيبة لأخلاق الناس، والأشــجُّ كان رئيسَ عبد القيس، ولــم يتبوأْ هذه الرئاســةَ عفــوًا دون اختبار، بل أدرك معشــره ما يتميز به من رجاحة نفسية فسودوه.

فــإذا تركنــا الحلم إلى التحلــم فإننا نجد أمثلتــه في أكثر ما نشــاهده، بــل نجدُ أمثلته في نفوســنا حين يتملكنــا الغيظ في موقــف ما، ثم نرى الكظم وســيلةً لحســم الشــر، ومــن أمثلته التاريخيــة ما كان من معاوية حين أخذ يســتقبل الوفود بعد عام الجماعــة، فكانــت طوائــف المتحدثين والمتحدثات تُســمعه مــا يكــره، وهــو لا يزيد إلا ابتســامًا ثم يســارع بالعطــاء، وقد يتملكه الغضب فينــدُّ ببعض الزجر فلا يلقى إلا عنادًا كما فعل مــع صعصعة بن صوحــان، والأحنف بن قيــس. والأول خطيب العــرب وصاحب الأمر في قومه، والثاني حليم العرب ومضرب المثل فيهم بالرجاحة والحزم والسداد. وقد خطب معاوية فقال بالمدينة في عام الجماعة: «والله لا أحمل سيفي على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يشفي به القائل نفسه بلسانه، فقد جعلتُ ذلك دُبُر أذني وتحت قدمي»، وهو كلامٌ يدل على ثبات ورســوخ! وقد قسَّــم مرةً قطفًا «جمع قطيفة» فأعطى شــيخًا من أهل دمشــق عطية لم تعجبــه «وكان يرفق بالدمشــقيين كثيرًا» فغضــب الرجــلُ وحلــف ليضربن بهــا رأس معاوية، فاســتدعاه الخليفةُ وكشــف له عن رأســه. وقــال: أوفِ بيمينــك وليرأف الشيخ بالشيخ، وتلك سياسة رائعة في جذب الأنصار واستمالة الجماهيــر والوصــول إلى مثلها شــاق مرهــق، فللنفس نزوات

صاحبة تعز على الأناة، وكم من عاقل أخذ يدرب نفسه على الهدوء حتى سكنت بعد وثوب.

قال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن قبلكم يغضب فيشتد غضبه، فكتب عدة صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبتُ فأعطني هذه، وقال للثاني: إذا سكَنَ بعضُ غضبي فأعطني هذه، فغضب يومًا فأُعطي الصحيفةَ الأولى فإذا فيها: ما أنتَ وهذا الغضب، فإنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضُك بعضًا، فسكن غضبه، فأُعطي الثانية فإذا فيها: ارحمْ من في الأرض يرحمك من في السماء، فأُعطي الثالثة فإذا فيها: خذ الناسَ بحق الله وحده فليس لهم غير ذلك.

هذا نمط من العلاج النفسي يقوم به إنسان يحرص على الحلم فيتحلم، ويدعو أصحابه إلى ملاحظته كي يردوه إذا شطَّ، وهو في ذلك يترسم خُطا القرآن؛ إذ يدفع السيئة بالحسنة، وما يلقاها إلا الذين صبروا.

نظرات قرآنية

الإحسان في سورة يوسف

-١-

يدور بين بعض المثقفين حديث علمي تتفتح به القرائح عن نفائس ثمينة من المعاني، وقد كان أسلافنا من فاقهي العلماء يسجلون هذه النفائس فيما يُعرف بالمجالس أو الأمالي أو المحاضرات، ففي التراث الأدبي لدينا مجلدات تندرج تحت هذه العنوانات، وكثير منها كان صيدًا للخاطر في مجلس من مجالس العلم، وإذا جاز لي أن أنقل مجلسًا هيَّأه السمر العلمي دون إعداد مُسبق، وخرجت منه بزاد وفير من المعاني، فإني أكتب هذا المقال كنموذج لما أعنيه:

زارني أخي الأستاذ محمود فهمي البيومي أحد النابهين من أعلام المحاماة، فأدار المذياع ليسمع ما يتلو القارئ من كتاب الله في سورة يوسف، وأخذ القارئ يرتل في براعة وحذق حتى انتهى إلى قول الله عز وجل:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٢٢)

فختم التلاوة المباركة، ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أقول: لقد قرأت في بعض الكتب أن قصة يوسف عليه السلام بنيت على القميص، إذ جاء إخوته على قميصه بدم كذب حين أبعدوه عن أبيه، وإذ مزقت امرأة العزيز قميصه من دُبُر فكان ذلك أحد الدلائل على براءته أمام العزيز، وإذ بعث يوسف إلى أبيه قميصه فارتد بصيرًا حين شم منه ريح ولده!

فسألني صاحبي: وما حكمك على ما قرأت ولخصت؟

قلت : إن ذلك تخريج عقلي للأحداث ، فرد عليَّ يقول :
يمكن أن نقول احتذاء لما ذكرت : إن قصة يوسف بُنيت على الرؤيا الصادقة ، إذ رأى في صباه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سُجَّدًا له ، ثم دفع إلى السجن ففسر الرؤيا لصاحبي السجن حين رأى أحدهما أنه يعصر خمرًا ، ورأى الثاني أنه يُصلب فتأكل الطير من رأسه ، وصدقت الرؤيا ، ليخرج أحد السجينين فيجد العزيز يتحدث عن رؤيا البقرات العجاف والبقرات السمان دون أن يعرف تأويلها ، فيشير عليه بيوسف فيأتي بالتأويل الصادق فتُفَك كربته ، ويصبح قائمًا على خزائن الدولة ، ثم يلتقي أباه أخيرًا فيقول له :
﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾
(يوسف : ١٠٠)
فسكتُّ قليلًا ثم قلت : وهل أنت مستريحٌ لهذا التحليل ؟
قال أخي : أفضل أن يكون التحليل متجهًا إلى معنى خلقي كبير ، يكون السمة البارزة لخصائص هذا النبي الكريم ، وأرى أنه هو الإحسان ، والإحسان بمعناه الحقيقي بلوغ مرتبة الكمال فيما يحاول أن يأتي به الإنسان من الأعمال ، فالمحسن هو الذي يأخذ من كل شيء أحسنه ، وليس الإحسان مقصورًا على التصدق ، بل إن التصدق بعض معاني الإحسان فحسب ، وإن اشتهر لدى العامة أن الإحسان هو التصدق لا يتعداه ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ : «إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[٤] أي ابلغوا بالذبيحة مرتبة الكمال في الذبح ، فاعملوا على انتهاء ألمها في

---

(٤) مسلم، كتاب الصيد، ص٥٧.

وقت سريع، وإذا كان الإحسان بلوغ مرتبة الكمال فلقد وصف يوسف عليه السلام بالإحسان عدة مرات في هذه السورة الكريمة وتكرار هذا الوصف الخلقي الرائع يرجح لديّ أن يكون الإحسان بمعناه الشامل هو جماع صفاته النبوية الرائعات.

قلت: الأمر يحتاج إلى إيضاح مبين، فاعتدل المتحدث في جلسته ليوحي إلى سامعه باحتشاده للقول، وأخذ يفيض في إجابة متساوقة مطردة، عنيت بأن أقدمها ملخصة للقارئ الكريم.

-٢-

قال صاحبي: إذا كان معنى الإحسان هو بلوغ مرتبة الكمال فيما يأخذ به الإنسان من أعمال الخير، فكل الأنبياء – وهم صفوة البشر – محسنون دون نزاع، وقارئ سورة الصافات يرى سردًا موجزًا لبعض أحداث النبيين – يختم دائمًا بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

فالله تعالى يقول عن نوح:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾
(الصافات: ٧٩، ٨٠)

ويقول عن إبراهيم:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾
(الصافات: ١٠٩، ١١٠)

ويقول عن موسى وهارون:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٠، ١٢١)

ويقول عن إلياس :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(الصافات : ١٣٠ ، ١٣١)

فالإحسان صفة الأنبياء بعامة ، ويوسف عليه السلام قد تتابع وصفه بالإحسان في سورته الكريمة ، تتابعًا يجب أن يكون موضع دراسة نتخذ منها العبرة البالغة .

فالله تعالى يقول عنه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٢٢)

ثم يقول -جل ذكره- على لسان صاحبيه في السجن :

﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٣٦)

ويقول -عز وجل- ثالثًا- :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٥٦)

ويقول- رابعًا- على لسان إخوة يوسف :

﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٧٨)

ويقول- خامسًا- على لسان يوسف :

﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٩٠)

جاءت قصة يوسف في القرآن متصلة السرد في حيز متتابع، ولم تجئ متفرقة في سور شتى كقصص غيره من الأنبياء، وقد مهَّد هذا الاتصال المتتابع للقارئ أن يقف على ترتيب الأحداث والوقائع في غير جهد، كما جعلنا ندرك ما نعنيه بالكمال النفسي التام في خلق هذا النبي الذي اصطفاه الله لرسالته حين نجد دلائله الواضحة في مواقفه المتتابعة، فيوسف قد رُزق الرؤيا الصادقة وهو صبي صغير، وتلك نعمة جزيلة جعلت والده الشفيق ينهاه أن يقص رؤيته على إخوته، إذ يتعاظمهم أن يعلموا أن الكواكب والشمس والقمر قد سجدت له، فذلك رمز بارز لتفوق مُنتظر، ولمجد ستتهيأ دوافعه عن قريب، وقد اعتقد النبي المنتظر أنه من سلالة الأنبياء، وأن ربه – كما أخبره والده – سيجتبيه ويُعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه كما أتمها على الآباء! وهو اعتقاد من شأنه أن ينأى به عن الصغائر، ويسمو بروحه إلى الفضائل، وهذا ما كان منه في جميع أدوار حياته.

بل هذا هو الإحسان الذي اتصف به أكثر من مرة في السورة الكريمة والذي كان مفتاح شخصيته المثالية منذ أن خبر شئون الحياة.

يقول الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٢٢)

والحكم والعلم مأثرتان نادرتان تضمَّان القول والعمل

معًـا ، وأي النـاس يرزق الحكمة والعلم ثم لا يكون محسـنًا أتم الإِحسان ! لعل من ثمرة هذا الإِحسان ما توالت به الأحداث التي سـردتها الآيات الكريمة بعد هذا النص الشريف ، وأهمها عفته الحصينة أمام جواذب الإِغراء ! شاب جميل في مستقبل الحياة ، تراوده أجمل سـيدات القصر عن نفسـه ، ولها سـطوة الجمال والشباب والملك والثراء ! فيصيح بها في قوة :

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾

(يوسف : ٢٣)

حتى إذا يئست من موافقته الاختيارية صممت على اغتصابه الإِجبـاري ، فر منها إلى الخارج حيث فاجأه سـيده ! وكان الحق أوضـح من أن يُسـتَر بادعاء كاذب وضحت أدلـة افترائه ! فقال العزيز لصاحبته :

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾

(يوسف : ٢٩)

ويُـذاع الحديث ويتعرض الشـاب الطاهر في مواقف الإِغراء حتى تضيق الحياة في وجهه فيقول :

﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾

(يوسف : ٣٣)

ثم يرى أن يودعه السجن دون اتهام ، كي يُسكت ألسنة السوء ، وما أن يحل به حتى يتضح لرفاقه معنى الإِحسان في نفسه ، إحسان القـول والعمـل والسـلوك ، ويرى اثنان مـن هؤلاء الرفـاق رؤيتين مناسبتين ، فلا يجدان غيره للتأويل ، ويصيحان به :

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٣٦)

لقد جاء الوصف بالإحسان هنا على لسان الرفاق، وقد جاء هذا الوصف في الآية السابقة على لسان ربه! فكأن ما أودعه الله فيه من صفات الكمال لم يكن مستترًا يعلمه الله وحده، ولكنه عُرف وذاع حتى لمسه مخالطوه! فاعترفوا به، اعتراف مَن ينطق بالظاهر الشائع الذي لا يمتري فيه أحد، وقد أحسن يوسف العلم هنا حين عبَّر عن الرؤيتين تعبيرًا جاء مطابقًا للواقع المتحقق فيما بعد، كما أحسن يوسف الحكمة حين عصم نفسه من الشهوة الكاذبة في موقف المراودة، فكانت ثمرة الحكمة تجاور ثمرة المعرفة، وبهذه الثقة المكينة في نفوس أصحابه أخذ يدعو إلى توحيد الله، مؤديًا وظيفة الرسالة هاتفًا بالقوم:

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(يوسف: ٣٩)

مضت الأيام تكشف عن سمو النبي وطُهره، كما كشفت عن دقته الحكيمة في تأويل الرموز وتفسير الأحداث، فكان هو المعبر الصادق لرؤيا الملك، وقد اختاره الملك وزيرًا لشئون المال، حين لمس حكمة العقل وطهارة النفس في سلوك صاحبه، وبهذا المنصب اللامع نال الصابر المحتسب جزاء الصبر الجميل، كان رقيقًا بِيع بثمن بخس، ثم متهمًا في واقعة مفتراة، ثم سجينًا يصحب الأشرار في غياهب السجن،

وأقصى آماله أن يخرج منه إلى قضاء الله ناعمًا بالحرية وحدها، ولكنه خرج رئيسًا قائمًا على أمر الناس وصيانة الأرواح وحفظ الأموال، وتلك مهام لا يضطلع بها عن جدارة إلا مَن رُزق الكمال الإنساني في أرقى صوره، فتم له بذلك معنى الإحسان، وتكرر وصف الله له حين قال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦)

لم تنقطع الأحداث عن مجراها الطبيعي، فلا بد أن تتحقق الرؤيا الصادقة، ولا بد أن تتهيأ أسباب الاتصال بين يوسف وأبيه مهما طال العهد، وقد عم القحط كثيرًا من الربوع، وتسامع إخوة يوسف في مكانهم القصي عن وزير كريم في مصر يبيع البُر بالثمن الزهيد تارة، ويتصدق به دون ثمن تارة أخرى، فخفوا إليه مسرعين وعرفهم وهم له منكرون، ثم سألهم عن أخ لهم من أبيهم لم يقدم معهم في الرحلة إلى مصر، ولو رزقوا بصيرة لوقفوا طويلًا عند هذا السؤال، ففكروا: كيف عرف الوزير القصي أن لهم أخًا من أبيهم؟ وكيف صمم على حضوره وليس يعنيه من أمره شيء؟ كان من المنتظر أن يفكروا في ذلك وأن يتفرسوا في ملامح وجهه بعد أن حدثهم عن أخيهم، فقد يرون في قسماته ما يدل على عهد سالف جمعهم به، ولكن القدر حال دون ذلك، فرجعوا إلى أبيهم ليصحبوا أخاهم، ثم يحتجزه يوسف بتدبير محكم، فحين يتوقعون الكريهة يصيح صائحهم:

﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٧٨)

هاهم أولًا، قد اعترفوا بالإحسان لمن رموه في غيابة الجب ظالمين، ولمن تجنوا عليه كاذبين إذ:

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾

(يوسف: ٧٧)

ثم يعودون حائرين إلى أبيهم فيقولون:

﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾

(يوسف: ٨١)

فيصيح بهم: أنتم شر مكانًا، والله أعلم بما تصفون! لقد ارتاب في مسألة السرقة إذن؟ ثم دفعهم إلى الرجوع كي يبحثوا عن يوسف وأخيه، لم ينس يوسف على تطاول العهد، بل إنه صاح حين علم باحتجاز بنيامين، صاح يقول: يا أسفا على يوسف! فقال له بنوه:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥)

رجع القوم وقابلوا الأخوين وفاجأهم الموقف بما أدهشهم حين صاحوا:

﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾

(يوسف: ٩٠)

فقال العزيز :

﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٩٠)

ليس تتبع الأحداث هدفًا من هذا المقال ، ولكن الهدف هو إبراز معنى الإِحسان الذي صحب يوسف في مواقفه المتلاحقة والذي عرفه هو من نفسه فقال :

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٩٠)

كما عرفه فيه إخوته قبل أن يعلموا صلتهم به ، وكما عرفه صاحبا السجن حين طلبا إليه أن يعبر عما رأياه ! وحين يصنعه الله به في قوله :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٢٢)

وذلك شرف لا مطمع بعده لشرف في العالمين !

لقد صار الإِحسان ديدن هذا النبي المكافح كما هو ديدن كل نبي كريم .

هذا تلخيص لحديث جيد سمعته من قائله ، فطربت له . . أليس من حق القراء عليَّ أن أتحفهم بما يضم من التالد والطريف ؟

إن مع العسر يسرًا

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

(يوسف : ٨٧)

لا تسير الحياة على نمط واحد ، فقد تشرق الشمس في الصباح وضيئة ساطعة ، فينهض الناس إلى أعمالهم مستبشرين برحمة من الله وفضل ، ثم تتجمع السحب وتهب الريح ، ويجلجل الرعد ، ويلمع البرق وما هي غير لحظات حتى ينهمر الغيث بدافقه المدرار فيملأ المسالك والدروب ، وتنقطع حركة الرائحين والغادين انتظارًا للصحو ، وترقبًا للضياء ، وهكذا لا تسير الحياة على نمط واحد . وعلى الذين يعانون في أوقات الشدة ضروب البلاء المتأزم أن يعرفوا هذه الحقيقة ؛ إذ ليس العذاب بسرمد دائم ، وليس النعيم بأبدي لازم ، ولكن هذا وذاك مما يجيئان على التعاقب . وما خلق الله –عز وجل– الليل والنهار متعاقبين إلا ليلقيا بالعبرة البالغة والمواعظ المحسومة ، ومن هذه العبر البالغة أن دوام الحال من المحال :

﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾

(يس : ٣٧ ، ٣٨)

أشد الناس بلاء الأنبياء:

وقد لاقى أصحاب الرسالات السماوية من ضروب البلاء

وألوان المحن ما يضرب المثل للناس ؛ فهؤلاء هم رسل الله يؤدون رسالته ويبلغون كلمته، وما أيسر أن يسهل الله عليهم طريق الرسالة فيجذب إليهم الأشياع دون عناد ولكنه – جل ذكره – قد واجههم بالصعوبات ليكونوا قدوة للناس في الجهاد والجلاد، وقد تحمل رسول الله ﷺ من ضروب الشدائد ما تحمل ولاقى أصحابه معه بعض ما لاقى من العُسر ومنهم من آثر الصبر ومال إلى التفاؤل ارتقابًا لتحقيق وعد الله، ومنهم من حزبه الضيق فشكا إلى رسول الله بعض ما يلقاه، فنزل القرآن داعيًا للثبات، ومناديًا بالصبر، وضاربًا المثل الواقعي بما عانى أولو العزم من المرسلين يقول الله عز وجل:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

(البقرة : ٢١٤)

وقد يشتد العسر بالرسول وأصحابه فينزل الله كتابه مبشرًا باليسر ومعددًا نعمه السابقة على رسول الله حين شرح صدره بالنبوة ورفع ذكره في العالمين، يقول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح : ١ – ٨)

وأصحاب الذوق القرآني في استشفاء أسرار البيان المعجز

يقفون متأملين عند قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

ففي هذا التعبير الدقيق من السر الحكيم ما قد يخفى على بعض الناس.

فهناك فرق واضح بين أن يقول الله عز وجل : إن بعد العسر يسرًا وبين أن يقول :

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

إذ المعية في الآية الكريمة تدل بوضوح على أن العسر مهما كان شديد الوقع بالغ الأثر، فهو يحمل في طواياه الخفية بعض اليسر، إذ ينطوي على منفعة خفية يعلمها الله ويجهلها الناس، فكم من نعمة في طي نقمة ! ! فعلى المؤمن الصادق حين يدركه العسر أن يعتقد أن الأمر ليس شرًّا كله، وأن الوجه الظاهري يُخفي من الخير ما لا يُدرك إلا بعد حين، وكم من أناس داهمهم الزمان بما ضجُّوا منه صارخين، واستحال عليهم الصبر لهول ما يحسون ويدركون، ثم مضت الأيام فإذا بشائر الخير تنهل مما حدث من سالف الشر، فكأن المفاجأة الأولى كانت ميلادًا عَسِرًا لا بد منه كي يشرق مولود جديد، فاليُسر حينئذ كان مصاحبًا للعسر يندرج في طياته دون أن يحسه الناس، هذا ما يشير إليه التعبير القرآني الدقيق.

ولا ينافي ذلك أن يكون هناك من الأحوال ما يكون به الشر خالصًا دون أن يحمل في طياته بوادر الخير.

وهذا ما عبَّرت عنه آية كريمة أخرى حيث قال الله – عز

وجل – في كتابه:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

(الطلاق : ٧)

ولا تصطدم حالة بحالة؛ لأن ما يتقلب على الناس من نوازع البؤس والفرح أكثر من أن يندرج تحت مقياس واحد لا يتعداه.

رأي الزمخشري:

هذا المعنى الذي أشرنا إليه من اصطحاب اليُسر للعسر في قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

لم نجده لدى الإمام الزمخشري وهو المفسر الذوَّاقة البليغ، بل رأينا ما يخالفه حيث قال في الكشاف:

«فإن قلت: إن (مع) تفيد الصحبة، فما معنى اصطحاب العسر واليسر؟ قلت: أراد الله أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المرتقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادةً في التسلية وتقويةً للقلوب».

فكأن صاحب الكشاف يذهب إلى أن التعبير قد قرب اليسر المتقرب حتى جعله كالمقارن للعسر مع أن العسر في الآية مقارن لليسر فعلا، وليس كالمقارن، ولكل وجهة هو موليها.

علاج اليأس:

على أن اليأس داء قتَّال، ولما كانت هواجس الإنسان في أكثر حالاته تدعوه إلى اليأس حين يدرك واقعه الظاهري دون

أن يمتد باستشــفافه إلى ما يطويه الله من خير سـيؤتي ثماره عن قريب ؛ فقد رسمت سـورة الشرح سُبلًا لدرء هذا اليأس القاتل ، وهـو التوجه إلـى الله بالدعاء والارتـكان كل الارتكان إلى عون السماء ، يقول الله ـ جل ذكره- :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾

ليدعو الإنسان إلى أن يترك واقعه المظلم ويتجه إلى السماء راغبًا داعيًا حيث يجد في عونها الفرج الواسع من الفرج الضيق والالتجـاء إلى قـدرة الله مما يبعث الطمأنينة ويرد التشـاؤم إلى التفاؤل ؛ لأن صاحب القدرة القادرة يستجيب للمضطر إذا دعاه ، فيكشف السوء ، فهو إذن ملاذ اللائذين وغوث المستغيثين .

وإذا كان القرآن الكريم في ترتيبه المتناسـق يكمل حلقات المعاني المتواشـجة إكمـالًا يدركه البصراء بأسـاليب البيان ، فإن هذا التجاور بين سـورة الضحى وسورة الشرح يؤكد حقيقة التفاؤل ، ويعلن تعاقب اليسر والعسر ، فقد دلت الآيات الكريمة في سـورة الضحـى على هذه الحقيقة الماثلـة ، إذ انقطع الوحي عن رسـول الله حينًـا من الدهـر ، فلقي من ذلـك الانقطاع عناء نفسـيًا مبرحًا ، وقد شـمت به من أعدائه مَن يتشـفون بما يلقى من صعوبات في طريق دعوته الكريمة ، فكانت شـماتة الأعداء شـدة أخرى تُضاف إلى الشدة الحادثة من انقطاع الوحي ، فنزل قول الله عز وجل :

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى : ١-٥)

نزل هذا القول الكريم ليبشــر باليســر بعد العسر، وبالفرج

بعد الشــدة، وبالرجاء بعد اليأس، وقــد ضرب الأمثلة بما تقدم

من حياة الرسول حيث قال:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى: ٦-٨)

وفي ختام السورة يقول الله عز وجل:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

ليكــون الحديث عن نعمة الله، طــاردًا لليأس، مؤكدًا للأمل،

فــإن الذي يتذكر ما أســلف الله له في أمســه مــن خالص النعم لا

ييأس من غده، بل يقيس الآتي على الغابر فيرتاح.

الإيمان والأمل

هكـذا تترقب النفوس المؤمنة بـوارق الأمل فترتاح، وهكذا تحـاول جاهـدة أن تطرد هواجس اليـأس لتفيء إلـى ظل الأمن والطمأنينة، وفي كتاب الله أمثلة تاريخية لبزوغ الأمل في ظلمات اليـأس؛ فقد اقتفى فرعون موسـى وأصحابه حيـن فروا هاربين بدينهم الموحد، وكان العدو من ورائهم والبحر من أمامهم، ولا عاصـم من الخطر إلا بمعجزة، فغلبهم اليأس وصاحوا بموسـى وجلين:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(الشعراء: ٦١)

ولكـن نبي الله لم يفقد أمله في ربه، مع أن كل الظروف تنذر بالشر المستطير فصاح في عزم:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(الشعراء: ٦٢)

وقـد هداه الله فعـلاً إلى بـاب النجاة فضرب البحـر بعصاه، وتمت له بذلك معجزة النجاة.

ويعقوب: يفقد يوسف وتمتد دونه الأعوام دون عود، ثم يفاجأ بفقد أخيه! فلا يدركه اليأس من يوسف، بل يصيح بأبنائه:

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(يوسف: ٨٧)

ويتعجب أبناؤه من أمله الموهوم في اعتقادهم، وكانوا قد قالوا في يأس:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(يوسف: ٨٥، ٨٦)

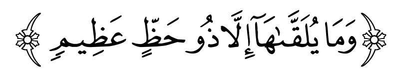
وهم يتعجبون لهذا الأمل في غير مأمل، ثم ينجلي الأمر عن تحقيق رجائهم وسعادة عقباه.

وقد فهم رجال الطب المعاصر أثر اليأس في خطره الصحي وضرره العضوي، وحللوا ما يطرأ على جسم اليائس من اضطراب يقوده للوبال، فذكروا أن اليأس يسبب الانقباض ويدعو صاحبه إلى الكآبة والاحتجاز عن الناس، فإذا خلا بنفسه تصور أنه أتعس شخص في الوجود، وبالغ في تصوره فيضيق صدره وتزيد سرعة النبضات في قلبه، وتنخفض حرارته شيئًا فشيئًا، ثم يفقد شهية الطعام وتتكاسل الكبد تلقائيًا عن أداء وظيفتها، فيعقب ذلك هبوط تدريجي يتبعه ارتجاف الأعصاب.

والذين يؤكدون ذلك من رجال الطب لا يصدرون عن خيال روائي، بل ينقلون حالات حية عرضت أمامهم وأدركوا ما دعا إليها من البواعث، وما وصلت إليه في النهاية من خطر منذر بالفناء، فإذا كان اليأس داعية ذلك كله، فلماذا لا نلجأ إلى السماء آملين لتمدنا بالعون؟ ولماذا لا نبحث عن أسباب التفاؤل دون أن نستغرق في هذا التشاؤم المطبق؟ فقد يجعل

الله بعد عسر يسـًرا ، وفي الحياة شواهد تنطق بانفراج الأزمات وانتهاء الشـدائد ، وفي ذكر الله اطمئنـان (لليائس) لأنه يذكر من يعلم حالته ومن يستطيع أن ينقذه من شره الوبيل .

إن الإنسان يسير في الطريق رائحًا غاديًا يتصفح وجوه الناس فيعرف اليائس المعذب ، ويعرف الآمل السعيد ؛ إذ يرى اليائس متجهم الأسـارير ، متعثر الخطوات ، يحدثه زميله فلا يستوعب حديثه ، ويكلمه جليسه فيقتضب الرد كمن يحاول التخلص من الحوار ، كما يرى الآمل المتفتح مبتهج النفس ، مشرق الطلعة ، يبدأ بالتحية ويسـتمع فيصغي في ابتسـام ، ويـرد في اطمئنان ، وقد يكون هذا الباسم السعيد ممن لا يملكون غير قوت اليوم ، ولكنه يأمل في الغد ، على حين ترى من اليائسـين من يملكون القناطير المقنطرة من المال ، ثم لا تستطيع أن تمحو سهومهم الكالح وعبوسـهم الكريه ، فالأمل ثروة حقيقية ، بدونها يكون الغني أفقر الفقراء ، واليأس فقر مدقع لا تدفعه خزائن المال ولا بنوك الاستثمار ، وفي أخلاق القرآن ما يطرد اليأس ويحيي الأمل لـو أقبلت النفوس على هدي الكتاب لوجدت فيه أمنًا من خوف وفرجًا من ضيق :



(فصلت : ٣٥)

الأمر بالمعروف

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

أوسع المفسرون كتاب الله ـ عز وجل ـ شرحًا وتفسيرًا، فما تركوا ـ على مر العصور ـ آية كريمة دون أن يذكروا كل احتمال في تأويلها. وقد تتعدد الآراء في الآية الواحدة، إذ يفتح الله على مفسر بغير ما يفتح به على مفسر آخر من التأويل، ولكل دليله الناهض، وتبريره المرجح، وهذا من تيسير الله للذكر، إذ هيأ مَن يشرحه على شتى احتمالاته، وسبيلنا اليوم إذا أردنا أن نفسر آية كريمة أن نذكر ما قيل في شرحها من وجوه، وأن نختار ما نميل إليه من التوجيه، بأدلة توجب هذا الاختيار، على ألا نغفل رأي المخالف، بل نذكره دون تجريح أو تشهير؛ لأن طلب الحقيقة في ذاتها يدعو إلى الجدال العاقل والمناقشة بالتي هي أحسن.

وقد قرأت قريبًا تفسيرًا لقول الله عز وجل:

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

فوجدت صاحبه ينقل أحد الرأيين في الآية، وينسبه للإمام الزمخشري، ويذكر أدلته الظاهرة في تأييده، ثم يذكر الرأي

الآخر لائمًا منددًا محقـرا، ويذكر أصحابه بالتجريح، مع أنهم أئمة فضلاء.

وقد خالف الكاتب وجْهَ الحق في موضعين:

الأول: أنــه حين نســب رأيــه للزمخشــري أوهم القــارئ أن صاحب الكشاف لم يذكر غيره، مع أن الزمخشري ذكر الرأيين معًــا، ولم يرجح أحدهمــا على الآخر إلا بما يستشــفه صاحب الذوق الفني من خلال السطور، وهو استشفاف ذاتي لا يعدم مَن يستشف سواه لانطباع آخر؛ لأن العبارة غير حاسمة.

والموضوع الثانــي: أنه حين خالف رأي غيره لم يذكر دليله ثم يكر عليه بالتوهين، بل اكتفى بالخطابية السيالة في عبارات إن جازت في خطابة العامة فلا تجوز في مجال الكتابة التحليلية والــدرس البصير، وها أنا ذا أناقــش الرأي، ومن عادتي أن أغفل اسم الكاتب حين ألجأ إلى تخطئته، كيلا يتوهم أحد أننا نقصد التخطئة لنكشــف صاحبها، مع أننا جميعًــا طلاب حقيقة دون نزاع!

لقد تعرض الزمخشري لقول الله ـ عز وجل:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

فقال رحمه الله:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾

(مِن) للتبعيــض؛ لأن الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر

من فروض الكفايات؛ ولأنه لا يصلح له إلا مَن علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشره؟ فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظ، وينكر على مَن لا يزيده إنكاره إلا تماديًا، أو على من الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المأصر[٥]، والجلادين، وأضرابهم، وقيل: (من) للتبيين بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾

(آل عمران: ١١٠)

هذا ما قاله الزمخشري بنصه، فقد ذكر الرأيين معًا، ثم أتى بعد ذلك بأمثلة وردَّ عليها، فدل على أنه لا يرجح أحد الرأيين على الآخر، ولكن الكاتب الفاضل قد أغفل رأيه الثاني، ومضى في تجريح قائليه وكأنهم ليسوا أئمة من كبار المفسرين، بل كأنهم طلبة يتخبطون مبتدئين، مع أنهم أشبعوا رأيهم تأييدا وتدليلا، وجاءوا بما يشفي صدور الباحثين، ونستطيع أن نقدم خلاصة لُلباب ما قالوه في هذه النقاط:

(أولًا) قال الله تبارك وتعالى في سورة العصر:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(٥) الحاجز بين الشيئين، والجمع: مآصر. والمأصر: سلسلة تمد على النهر، لمنع السفن من المرور.

﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾

(العصر: ١ – ٣)

فجعل التواصي بالحق، وهو الأمر بالمعروف، سبيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جميعًا، ولم ينص على فريق دون فريق.

(ثانيًا) قال تعالى:

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

فجعل الخطاب للمؤمنين جميعًا، ولم ينص على فريق دون فريق، وإذن فقد كانوا خير أمة؛ لأنهم جميعا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

(ثالثا) قال الله -تبارك وتعالى- متحدثًا عن بني إسرائيل:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨)

فحقت عليهم اللعنة ـ وهي عقوبة شديدة ـ حاصلها الطرد من رحمة الله، والبُعد عن غفرانه، إذ كانوا يرون المنكر دائمًا شائعًا ثم لا يتناهون عما يفعلون من المناكر، فلعنوا على لسان داود عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما

دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا، اتق الله، ولا تصنع الشر، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه في غد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله أو شريبه أو قعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم تلا رسول الله ﷺ قول الله عز وجل:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾

وكان رسول الله متكئا فجلس ثم قال: «والذي نفسي بيده لتأمرُن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم».

ومع هذه الآيات وأمثالها طائفة من الأحاديث الصحيحة، مثل ما روى البخاري عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال:

(أ) «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأخذ كل واحد منهم نصيبا، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء يمرون به على الذين في أعلاها فتأذوا، فقال الذين في أسفلها: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَن فوقنا، فأخذ أحدهم فأسا، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه ومنعوه أنجوه، ونجوا أنفسهم، وإن تركوه هلك وهلكوا».

(ب) روى مسلم وغيره من أصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقبله، وذلك أضعف الإيمان».

(ج) روى أصحاب السنن عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها:

«أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتئولونها على خلاف تأويلها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (المائدة: ١٠٥)

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم مَن يقدر على أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده».

هذه ثلاث آيات، وهذه ثلاثة أحاديث، وللآيات والأحاديث نظائر كثيرة يضيق المجال عن سردها، وفيها مقنع أي مقنع لمن يجعلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمرًا عامًا، فهم ليسوا بأدعياء في العلم كما حاول الكاتب أن يَصِمهم في استعلاء لا داعي له.

ولنا أن نذكر شيئًا على ما قاله الزمخشري خاصًا بالرأي المخالف فنقول:

«إن قول صاحب الكشاف أنه لا يصلح للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مَن علم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر!!

هــذا القول يــدل على أننا نريد من كل مســلم أن يلي الفتوى أو القضــاء أو الحِســبة ! حتى نشــترط هــذه الاشــتراطات ، ولكن المســألة لا تخــرج عــن الأمور العامــة التي يعرفها كل مســلم ، فالحــلال بيِّــن والحــرام بيِّــن ، وكل مســلم يعــرف أن الله أمره بواجبــات عليه أداؤها ، ونهاه عن محرمات عليه اجتنابها ، هذه الواجبات المســلمة ، وتلك المحرمات المشــتهرة ، هي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل إنسان ، وإذا كان على كل مســلم أن يعلم ما أحل الله وما حرَّم في أمور دنياه فقد وجب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

ولنا أن نشير إلى ما فهمه بعض السُّذَّج من حديث : «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبــه» حيث فهــم أن الإنكار القلبي لدى غير المســتطيع في الحالــة الثالثة هو الاكتفاء بالســكوت الظاهــري ، ولكن المراد غير ذلك ؛ إذ على المُنكِر بقلبه أن يشــيح عن مجالس العصاة ، وأن يُظهِــر الضيق النفســي لمــن يحادثونه عــن مخازيهم ، فإذا أجمع الناس على مقاطعتهم ، ونظروا فوجدوا السخط الصامت ، والغضب النافر أدركوا ما وراء الصمت من استنكار ، وعلموا أن عدم الاســتطاعة وحدها من الأشياء التي حالت دون المجابهة ، وإذ ذاك يضطــرون إلى إرضاء المجتمع ، إذ لا حياة ســعيدة لهم بدونــه ، أمــا لــو كان معنــى الإنــكار القلبي مجــرد الصمت مع المخالطة والمعاشرة والترحيب فلا قيمة إذن له ، وهذا بعض ما يُفهم من قول الله ـ عز وجل :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الأنعام: ٦٨)

هــذا لُباب ما يمكــن أن أوجزه في هذا النطــاق، ولعل الذين يُكلَّفون باســتعراض وجهات خاصة من شتى الجهات المختلفة في تفســير الآية الواحدة أن يعلموا أن القارئ ذو حق صريح في أن يستكمل معرفته التامة لما يطالع من المسائل، وأنه لا يجوز أن نكتم شيئًا ونُظهر شيئًا آخر، وكلنا طلاب حقيقة، فلا علينا إذا كان ما نخالفه من الرأي يجد تأييده عند غيرنا، بل علينا أن نساعد على جلاء الحقيقة بالنظر إلى شتى الزوايا المتقابلات.

***

الصداقة خلق إنساني

كنتُ أقرأ في الجزء الرابع من كتاب (فيض الخاطر) لأستاذنا الكبير الدكتور أحمد أمين - رحمه الله - فعثرت على خطاب خلقي بديع كتبه إليه أحد أصدقائه مُحللا عاطفةً نبيلةً نحوه وفيه يقول:

لقد صادقتك، فاستصغرتَ متاعبي وهَزِئت بهمومي، وظهر خيرُ ما في نفسي، ودبّت القوة في إرادتي، وشعرت بالحرارة في همّتي، فماذا أكون لو لم تكن، لقد ساء ظني بالناس، وأنكرت المروءة والإخلاص والوفاء، وظننت أنها ألفاظ وضعت لأوهام، واللغة لم تتحرر من أن تضع أسماء للموجود والمعدوم، والجائز والمستحيل، والشيء واللاشيء، فلما عرفتك آمنت بك وبالناس وبالألفاظ، ودلالتها على المعاني، ثم كنت غريبًا بين أهلي وولدي، فإذا أنا بك حاضر في غربتي، مؤتنس في وحشتي؛ لأنك في قلبي، وقلبي معي، ما أظنه يفارقني ولا بالموت.

«لقد كنت أنزل قبلك في مَسبَعة ضربت وحوشها، واحتدّت أنيابها، يتظاهر أهلها بالود، ويُضمرون العداء، ويبكون مع الراعي، ويعيشون مع الذئاب، فاليوم نزلت بك في جنة نعيم، أَمَّنَتْني صداقتك من خوفٍ، وطَمْأَنَتْنِي من روع، وفتحت لي أبوابًا من السعادة يعجز عنها اللفظ، ولا يحدها وصف، حسبي أن أذكرك فأشعر بشفاءٍ للصدر، وبرد من حُرقةٍ، وطرد للهم، ومبعث للرجاء، وتفتح للأمل».

والخطاب على طوله بديع رائع يلمس أرق المشاعر في أطواء النفس، ولو أستطيع لنقلته جميعه في مقالي، ولكني دللت على موضعه ليستظل به مَن يجد سموم الغدر من عاق، فيظن أن الصداقة قد فنيت في الحياة، وذهبت إلى العدم، وهو معنى بغيض، يَسْوَدُّ له العيش، وتتأزم به الصعاب، قد ساعد على تثبيته ما ردَّده بعض الشعراء في أزماتٍ خاصة تنطقهم بمثل قول المتنبي:

خليلك أنت لا من قلت خلي
وإن كثر التجمل والكلام

وقول أبي العلاء:

فظن بسائر الإِخوان شرا
ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبري
لما طلعت مخافة أن تُصادا

وقول مهيار:

فلا تغررك ألسنةٌ رطاب
بطائنهن أكباد صوادي
فإني بعد تجربتي لعيشي
أنست ولا أغشك بانفرادي

وهي أقوال تعبر عن أزمات تشتد وتنفرج، وليس قول الشاعر إلا صدى لانفعال مؤقت، وقد ينقلب في وقت آخر إلى انفعال مضاد، فيأتي الشاعر بضد ما قال، وهذا ما نلمسه في

اختلاف المناحي النفسية لدى الشعراء، ولكن القارئ المتعجل يعتقد أن ما قيل في دواوين الشعر حِكَمٌ لا تقبل الخلاف، ومن هنا كثر الاستشهاد بالشعر في مناسبة وغير مناسبة، وأنا لا أمنع الاستشهاد إذا كان ترويحًا عن نفس، أما إذا كان القول الانفعالي حكمًا نهائيًا لا يقبل المراجعة فذلك ما لا أرتضيه.

إن الصداقة في لُبابها مشتقة من الصدق، فهي في فحواها النفسي إخلاص لا يشوبه لبس، وصفاء رائق لا يرافقه تكدير، وقد حث الإسلام على الصداقة بين أبنائه حين جعل المؤمنين إخوة متحابين، وحين صورهم رسولهم الكريم ﷺ في توادهم وتراحمهم في صورة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، ومهما تحدث الأخلاقيون عن الفرق بين الصديق والأخ، فإن جامعة الإخلاص والحب والتواد تلفهما في نطاق واحد متجانس، في معشر أصبح الواحد منهم للآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

والشعور بالصداقة شعور غريزي يدفع إلى التكوين الطبيعي للإنسان، إذ إن كل فرد من بني آدم تجيش أحاسيسه وتموج خواطره بمعان تتطلب التنفيس في فضاء أوسع مما بين العظام من فراغ، حيث تنطلق هذه الأحاسيس على اللسان من قفصها الضيق بين أطباق الصدر، مفصحة عن حقيقتها المخلصة الخالصة، ولا بد من سميع حبيب يتلقى هذه الخواطر، ليشاطر في بأسائها مواسيًا، وينهل من نعمائها سعيدًا، وأحوج ما يكون الإنسان إلى هذا التنفيس المروح إذا كان في بأساء تتحلق

قبضتهــا على نفســه ؛ لأنه في حالة النعماء ســيجد من يســتمع ويرحِّب ، بل مَن يداهن ويتملق ، أما في شدة البأساء فما أصعب الحاجة إلى مُواس صديق ، يفسح سمعه وقلبه للشكوى الكاربة ، والهــم الثقيل ، ومن هنا كان صراخ الشــعراء في غياهب اليأس ممــا يلمس الوتــر الأرن في النفــوس ، وكان اشــتياقهم في هذه اللحظات الضيقة شــجنا داميًا يردده مثــل أبي فراس الحمداني في قوله :

لـقـد دعــت الـدنـيـا إلــى الـغـدر دعـوة
أجـــاب إلــيــهــا عـــالِـــمٌ وجــهــول
فـوالـهـفـتـا مَـــن لــي بِـــخِـــلٍّ مـوافـق
أقـــــول بـــشــجــوي مــــرة ويـــقـــول

ومثل قول البارودي :

أبــيــت فــي غـربـة لا الـنـفـس راضـيـة
عنها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فــلا أديـــب تــســر الــنــفــس طلعته
ولا صــديــق يـــرى مــا بــي فيكتئب

ولا نريــد أن نسترســل فــي الاستشــهاد ، إذ إن قــراء الآداب الإنســانية في شــتى اللغات يقفون على الكثير مــن أمثاله ، وإذا كانــت الصداقة جنــة وارفة الظــلال ، فإنها مع مســيس الحاجة إليهــا ، تؤتى مــن ناحية خطرة تكــدر صفاءها الرائــق ، وتطفئ بريقها الخالب ، وذلك حين تكون أداة منفعة وصولية يترصدها الصديق ، فيظهر مودته استجابة لمطلب مادي يرسم له خطواته ،

ويسعى إلى اقتناصه، فإذا أدرك مآربه، شعر بامتلاء نفسه من طعام شبع منه، فلم تعد به حاجة إليه، وليس معنى ذلك أن الصداقة ليست بابًا للنفع المتبادل، ولكن معناه أن الصداقة الحقة تنشأ أولا بين الصديقين تلبية لحاجة نفسية، يرفضها اشتباه الميول، واقتراب المشارب، وائتلاف الأمزجة، بحيث يجد الصديق في صديقه صورة من نفسه، وأقول صورة من نفسه لا صورة منصبه أو ماله أو تخصصه، إذ قد يختلف المنصب والمال والتخصص، وتبقى النفس بسجاياها وأشواقها وتذوقها صورة للنفس الأخرى دون اختلاف، فإذا نتج عن هذا التآلف المخلص، والتواد الصادق، نفع مادي للصديقين أو أحدهما، فقد جاء هذا النفع المادي تاليًا للصداقة، وثمرة سقطت طبيعية من الغصن بعد أن غرست البذرة، ونما العود، وأورقت الأفنان، أما إذا حتمت المنفعة الشخصية صداقة مفروضة دفعت إليها الضرورة فهي تجارة مؤقتة تنتهي علاقتها حينئذ بانتهاء الربح، وتلك لا تُسمى صداقة وإن خدعت الناس فسموها بذلك، وقد حرصت على أن أصف النفع بالمادية؛ لأن النفع الأدبي بين الأصدقاء واقع لا شك فيه، إذ كل صديق يأنس بلقاء صديقه، ويجد في حديثه المتنوع راحة تقشع الغيم، وتنفي الكدر، وتمد الروح بوقود يعين على السير في شعاب الحياة.

وكم يعجب الإنسان كل العجب حين يقرأ لأناس عرفوا بالحكمة والمنطق، كلامًا في الصداقة يضيق به صدر المنصف، ويمتعض له ذو الود الشريف.

فمحمد بن أبي الجهم كان حكيمًا يقرأ كتب المنطق، ويناقش المأمون، ويحضر مناظراته العلمية، ويترجم عن كتب اليونان، وقد كانت هذه الثقافة المتعمقة مظنة تهذيب نفسي، يدفعه إلى أن يأتي بما يغذي الروح الإنسانية من شعور، ويرفعها من إحساس، ولكني وجدت له في تحديد العلائق الإنسانية أقوالا بغيضة شائهة، وما من سبيل إلى استقصائها في هذا النطاق، ولكني أذكر منها قوله فيما يخص الصداقة والأصدقاء: «من شأن من استغنى عنك، ألا يقيم عليك، ومن احتاج إليك ألا يزول عنك، فمن حبك لصديقك، وضنك بمودته، ألا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف فيما يحوجه إليك، وقد قيل في مثل هذا: أجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك، فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر، والمعين على الغدر شريك للغادر، كما أن مزين الفجور شريك الفاجر».

وقد سقط ابن الجهم سقوطًا شنيعًا فيما قال وانتحى، إذ زعم الحاجة المادية وحدها داعية الصداقة، تذهب بذهابها، وتبقى ببقائها، ثم بنى على ذلك أن يكون البُخل بما يغني الصديق، وينقذه من ضيقه، وسيلة قوية لبقاء الصداقة، لتظل الحاجة المادية عامل التقارب والالتقاء، ثم بلغ به الهذر مبلغه حين ذكر المثل الجارح «أجع كلبك يتبعك» فجعل صديق الإنسان، وهو متنفس همه، وموضع سره، كلبًا ينشد العظم الملقى في الطريق، ثم زين له بحثه النفسي، وشحه الجِبِلّي، أن يتمحل أسبابًا للكزازة البغيضة، فزعم أن من أغنى صديقه فقد

أعانه على الغدر وقطع أسـبابه من الشـكر، وواصل الاسـتنتاج فزعم أن المعين على الغدر شـريك الغادر كما أن مزين الفجور شـريك الفاجر، وهذا القول السيئ يشي بنفس قائله، ويصوره للناس عاري الثياب، إذ إن الرجل في أعماقه يكره أن ينال خبره أحد، ثم يرى ذلك شـحًا ينكره الناس ويجعلونه موضع الزراية والاسـتخفاف فيحاول أن يختلق تبريرًا لبخله الشحيح، فيلجأ إلى سفسـطة ينكرها المنطق الذي يدعيه، والحكمة التي يقرأ كتبها لتعلو بعفته في مجتمعه.

ولـو فطن أبو الجهم إلـى أن الحاجة إلى الصداقة في سـببها الأول حاجة أدبية لا تزال تتجدد بتجدد الحياة، إذ إن كل إنسان مهمـا ارتقـى في معـارج تفكيره في حاجـة إلى مبادلة الشـعور ومطارحـة الرأي، لو فطن ابن الجهم إلى ذلك ما توهم أن معونة الصديـق الماديـة تقطع مودتـه، وتقضي على أسـباب اتصاله؛ لأن الحاجة الأدبية باقية متجددة، بل إن الإسـعاف المادي لدى الحاجة إليه مما يؤكد الصداقة، ويدعو إلى استحصادها، فحين يـرى الصديـق أن صاحبه قد مد له يـد العون في مأسـاته، فإنه يستشعر له حبًا يملأ شغافه، ويكون مدعاة جذب دافع لا مضنة انقطـاع متوهم، أمـا صاحب اليد فيـزداد تعلقًـا بصاحبه حين يعلم أنه بعض نفسـه، وقد أسـعفه بما يحتاج إليه كما يسـعف نفسه دون تفرقة، فالمواساة إذن عامل قوة وتثبيت، ولن تكون مدعاة ضعـف وتوهين، وإذا وجد في الأصدقاء مَن كفر بالنعمة وجاهر بالجحود، فهؤلاء قلة لا يُناط بهم حكم عام؛ لأن الكثرة

الكاثـرة ذات روح إنســاني فطر الله عليه النفـوس وجبلها على الحق والخير والشكران.

على أن النفع المادي لو كان وحده باعث الصداقة كما توهم – أو كمـا أراد أن يوهـم ابن الجهم – ما رأينا الصديق يفتح باب الخطر على نفســه، معرضًا حياتــه للمهلكة دفاعًا عن صديقه، ولا زلنـا نذكر أن عبـد الحميد الكاتب كان قد اسـتتر عند ابن المقفع حين سـقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسـية، وقـد فاجأهما الطلب ذات عشـية فسـأل الطـارق المهاجم في غلظـة: أيكمـا عبد الحميد؟ فقـال الاثنان معا: أنـا، إذ إن ابن المقفع أراد أن يفتدي صديقه، وهو يرى الموت منه قاب قوس، ولكـن عبـد الحميد صاح: لـي علامة أعرف بهـا، ويعرفها من بعثكم، وها هي ذي، حتى انتهى الأمر بمصرعه.

وهذه الحادثة وأمثالها مما يكرم به الخلق الإنساني، ويجعل لسـجايا السـمو والتفدية والحـب ملذات عاليـة دونها ملذات الدراهـم والدنانير، ويكفي الصداقة أهمية أنها تشـعر الصديق أنه لا يعيش وحده، بل هناك من يفزع لمصابه ويبهج لســروره، هذا الشـعور الممتن المنعش الذي جعل أحد الأصدقاء يتحدث عن صديقه، فيقول في هوى واعتزاز:

وكـنـت إذا الـنـوائـب أقـعـدتـنـي

يــقـــوم لــهــا وأقـــعـــد لا أقـــوم

بين التفاؤل والتشاؤم

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾
(التوبة : ٥١ ، ٥٢)

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

نص قرآني يبعث الاطمئنان الواثق في قلب المؤمن الصادق ، إذ يعتقد أن الخيرة كل الخيرة فيما كتب الله عليه ، فإذا لقي خيرًا فالسعادة واضحة لا التباس في شأنها ، وإذا لقي شرًّا ظاهريًّا فهو ابتلاء دنيوي يُمَحِّص الله به عباده ، ونقول شر ظاهري ؛ لأن نظرات الناس لا تصيب التحليل الصادق غالبًا فيما يفاجئها من الأحداث ، إذ يتضمن الشر في لفائفه كثيرًا من الخير المستتر ، وكم وقعت كارثة ظنها الإنسان ماحقة كاسحة ، ثم تكشف الأيام عن بذور خير نبتت في أرض المصيبة فاستطال جذعها وأورقت وأثمرت كل جميل ، فكلا الخير والشر مكسب أكيد للمؤمن الواثق بلطف الله ، وحسن اختياره لما ينزل بعباده من بأساء ونعماء ، ولا كذلك الجاحد المعاند الذي يستشعر القلق في كل وقت ويتشاءم بكل حادث تنبئ ظواهره عن الشر ؛ لأنه حُرِم الرجاء في ربه فسُدَّت في وجهه السبل ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

تربص المنافقين:

وفي الآيتين الكريمتين اللتين تصدرتا هذا المبحث ما يكشف عن معدنين مختلفين: معدن صافي السريرة، خالص الإيمان تنزل بأصحابه الشدة فتأتلق نفوسهم بالأمل، وترى أضواء الفجر في غبش الظلام، ويصيح صائحهم بلسان راض وقلب منشرح:

﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

ومعدن مختلط التركيب، مضطرب الاتجاه، لا يدري أين تقذف به الريح إذا هبَّت أعاصيرها الشداد، فهو قد فقد الإيمان الواثق، فجعل يتربص الدوائر بالمؤمنين، ظانًّا أن ما يتعرضون له من هجمات الأعداء سيأتي على أمنهم المستقر، فإذا أصابت المؤمنين حسنة ساءته ومن ينحون نحوه في أعماق نفوسهم المنحرفة، وإذا أصابتهم سيئة أظهروا المهارة والحذق وبُعد النظر وصاح صائحهم: قد أخذنا أمرنا من قبل، حين أحجمنا عن المساهمة في القتال وتولوا وهم فرحون.

وهؤلاء الحسدة المضطغنون في حاجة إلى من يعلمهم أن المؤمنين لا يتربصون إلا إحدى الحسنين، إما الظفر الكاسح في ساحة القتال، وإما الاستشهاد البهيج، فيصبحون أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، أما ذوو النفاق الحاقد فأمام خطر محقق من الله، إذ يصيبهم بعذاب من عنده، أو على يد أوليائه المخلصين، فإذا اعتقد المؤمن في المصير الحسن هش وبش، وانشرح وتفاءل، وإذا تجهمت الدنيا في وجه الجاحد الحاقد فيا ويله من نار تشتعل بين جوانحه، فإذا فارق الحياة فبئس المصير.

نظرتان مختلفتان

إن المتفائل من ذوي الإيمان ينظر إلى الأشياء بمنظار طبيعي، فهو لا يبالغ في تقدير العواقب مبالغة من يتوقع الشر، فيظل عابس الوجه منقبض الأسارير، ولكنه يزن كلًّا بميزانه الطبيعي، معتقدًا أن الله – عز وجل – قد جعل لكل ضيق فرجًا، ولكل عسر يسرًا، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في متاعب يومه وأعباء غده، بل معناه أن يضع كل عقبة تعترضه موضعها الطبيعي دون مبالغة أو تزيد، ثم يبحث عن الحل المناسب في هدوء وثقة، فإذا كانت النتيجة سارة مرضية شكر الله وابتهج، وإذا جاء الأمر على غير ما يود بعد أن بذل جهده الطبيعي في التذليل فقد ادخر كفاحه عند ربه، وله أجر الصابر المحتسب حين حمد الله على السراء والضراء، مع تفاؤل باسم ينتظر به غيوث الرحمة بين حين وحين.

أما المتشائم فيحسب كل صيحة عليه، يعمل في ضيق، فيجهده العمل القليل، إذ إن نفسه تعاني من أكداس التشاؤم أعباء ترين على ظهره، فيمضي كالمكبل بالأغلال، وذلك وحده فشل يمهد لسواه، ويجعله ييأس في أول الطريق أمام أهون العقبات، فإذا كانت العقبة عاتية تتطلب الصبر خانته أعصابه فبرم واستيأس، وحسب الإخفاق نتيجة محتومة؛ لأنه لا يفكر في قوة أخرى في السماء تدعوه للتفاؤل وتجعل بعد عسر يسرا، ومن المؤسف أن المتشائمين هم الكثرة الكاثرة في بلاد الشرق، وأكثرهم يعد الإخفاق أمرا مفروضا عليه، ولا حيلة له في اجتنابه، فإذا حاولت أن تدفعه للعمل ضاربا المثل

بمــن نجحوا في ظــروف أصعب من ظروفه، أســاء بــك الظن، وعدك شامتا غير ناصح.

التشاؤم مرض عنيد:

ظهــر أن التشــاؤم من صفــات المرضى لدى علمــاء النفس، وصاحبه في حاجة إلى علاج يرتفع به عن حضيضه الكريه، وفي نهي رســول الله ﷺ عن الطيــرة، إذ كان العرب فــي جاهليتهم يتطيــرن ويتشــاءمون، فــإذا أراد أحدهم الســفر فــي حاجة أثار الطيــر، فإن جرت يمينا تفاءل، وإن جرت شــمالا تشــاءم، ولا يزال لدينا الآن مَن يســتقرئ صحــف الغيب عن طريق الأوهام، فيفتــح المصحف ليرى أول آية تطالعه، فــإذا تحدثت عن خير سُــرَّ، ومضى لعزمــه متفائلا، وإذا تحدثت الآية عن شــر تجهم وانقبــض، وكف عما يحاول مــن أمور، وما نزل كتاب الله ليرى الناس عاقبة شــئونهم المعيشية، كســبًا أو خسارةً، ولكنه نزل ليرى المســلمون العاقبة المطمئنة لمن اعتصم بمبادئ القرآن، فآثر الفضائل وجانب الرذائل، كما أمد المؤمن بزاد من التفاؤل حين دعاه إلى الســير في جنبات الأرض سـعيًا وراء الرزق وحين حذره من الخواطر المتشــائمة والوســاوس المريضة، فقال جل ذكره:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٢٠١)

من الحديث النبوي:

ولا نظلم العرب في الجاهلية فندعي أنهم وحدهم المتطيرون المتشائمون بالغراب وما شاكله من المنفرات، فإن الأمم العريقة إلى يومنا هذا لم يخل أفرادها من التطير الموهوم بالكلب الأحمر، وبرقم ١٣، وبالبومة الناعقة، وما لا نطيل في سرده من الأوهام الذائعة عنهم؛ لذلك جاء الإسلام محاربًا التطير، داعيًا إلى التفاؤل قال ﷺ: «ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق».

وهذا الحديث من أعلام النبوة حقًّا؛ لأنه يصف الداء الواقعي ثم يعقب بالدواء الميسر؛ لأن الطيرة إذا كانت من أدواء النفوس فعلاجها الحاسم في قوة الإرادة وفي التصميم على العمل دون التفات إلى هجمات التعويق؛ لذلك كان رسول الله ﷺ من أشد المتفائلين، فقد روى أبو داود عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملا سأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح ورئي البِشر في وجهه، وما نجح رسول الله في رسالته إلا بالتفاؤل المستبشر، إذا تجمعت الدنيا على رهطه القليل فما استسلم، ولكن إيمانه بالله، وثقته في ربه كانا باعثي التفاؤل في أحلك أوقات الشدة.

وللقارئ أن يذكر بشارته للمسلمين بفتح فارس، وهو محاصر بالمدينة يوم الأحزاب، وقد تجمعت القبائل عليه تريد استئصال الإسلام، هنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا

شديدًا، ولكن الرسول الواثق بربه يؤكد لأصحابه نجاح العاقبة، ويَعِدُهم ما حققت الأيام صدقه! ولو تخلى الرسول عن التفاؤل لحظة لتخلى عنه في مأزقه الشديد يوم الخندق، مما أثار عجب كثير من السامعين، فتساءل أحدهم: كيف وأحدنا لا يأمن اليوم على نفسه؟

تصحيح وتحقيق:

للإمام بدر الدين الزركشي كتاب جيد سماه: (الإجابة، لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)، وقد جمع فيه عدة أحاديث خَالَفَ الرواة فتلوها على غير وجهها، ورأت أم المؤمنين – رضي الله عنها– أن تقوم بالتصحيح والاستدراك حفاظًا على المعاني النبوية الكريمة أن تتجه إلى غير مدلولها الصحيح، ومن هذه الآثار النبوية التي احتاجت إلى تصحيح السيدة عائشة ما رواه أبو هريرة من قول رسول الله ﷺ: "الشؤم في ثلاثة: في الفرس، وفي المرأة، وفي الدار" فقد استغربت أم المؤمنين أن يُبتر الحديث عن سياقه، فقالت: لم يحفظ أبو هريرة، فإنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقول: "قاتل الله اليهود، يقولون: الشؤم في ثلاثة: في الدار وفي المرأة وفي الفرس، فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله".

ومع هذا التصحيح الصريح، فلا يزال لدينا مَن يقرأ الحديث مبتورًا، وآخر ما رأينا في ذلك من يضطغن على الإسلام فيعلن أنه يحتقر المرأة ويراها مصدر الشؤم، ويستدل بالحديث المبتور، ولو صدقت نيات هؤلاء المضطغنين لجمعوا أقوال الرسول

الثابتة في الصِّحاح عن المرأة، وقارنوا كل ما قال بهذا الحديث المبتور، ليروه غير محتمل الصدور عنه، ولكن الغرض يعمي.

يقول الأستاذ سعيد الأفغاني ، ناشر كتاب الزركشي، تعليقًا على الحديث:

"والغريب أن هذا القول البعيد عن روح الإسلام لا يزال يعتقد به أشباه العوام حتى يومنا هذا على رغم تصحيح السيدة عائشة له من ثلاثة عشر قرنًا" ، ونحن نقول للأستاذ الأفغاني: إن الأمر لم يقتصر على أشباه العوام، بل انتقل إلى مَن يدعون البحث النزيه.

من صحف الأدب:

حفلت كتب الأدب بأمثلة رائعة تدل على ما يبعثه التفاؤل في النفس من عزيمة، وما ينتجه من انتصار، وهي طرف نادرة لها أثرها القوي في شحذ العزائم، وصلابة الإرادة، وتجاوز العقبات، ولنا أن نستشهد ببعضها:

١- سئل الإمام علي -كرم الله وجهه- بعد يوم الخندق، وكان قد نازل عمرو بن ود أكبر محاربي المشركين بسالة وجرأة، وله في سجل الوقائع خوارق نادرة، سئل رضي الله عنه: بم انتصرت على عمرو يوم الخندق؟ فقال: كانت نفسي تحدثني أني سأغلبه وأنه سيتقهقر أمامي، فلم أبال به في شيء.

٢- دخل الحجاج بن يوسف الثقفي الكوفة بعد رجوعه من حرب الخوارج، فجمع الناس في المسجد، وصعد المنبر ليخطب، فانكسر لوح خشبي تحت قدمه، وتغيرت الوجوه،

والتفت كل مستمع إلى جاره، فصاح الحجاج: ما هذا يا قوم، أئن انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد هصور تشاءمتم؟ ما هكذا الرجال!

٣- خطب قتيبة بن مسلم البطل الفاتح على منبر خراسان، فسقط القضيب من يده وتطير عدوه، واغتم صديقه، فعرف البطل خوافي ما دار في النفوس، فقال على البديهة: ليس الأمر كما ظن العدو، وخاف الصديق، ولكن كما قال الشاعر:

وألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

وأمثال هذه الطرائف لا يأتي عليها الحصر، وهي نافعة لمن قرأ فاعتبر، وتأمل فاستفاد.

***

فهرس المحتويات